

شرح الإمام الشيخ
علاء الدين البصرويّ الدمشقيّ (١)
السيرة المنزجة لشرح القصيدة المنزجة

الشارح:

١. هو الفقيه النحويّ الشيخ علاء الدين بن يوسف بن عليّ بن أحمد الدمشقيّ العاتكيّ الشهير بالبصرويّ. ولد سنة ٥٨٤٣هـ، وقيل ٨٤٢هـ / ١٤٢٨م. اشتغل في العلم على الشيخ رضی الدين الغزّي، ولأزمه، وأخذ عن غيره، وبرع في الفقه وغيره، وهو والد الخطيب جلال الدين البصرويّ، له شرح جمع الجوامع للتاج السبكيّ منه نسخة في شستريّ ٣١٥٧، والنسخة الزكية في شرح المقدمة الأجرومية في الظاهرية (الرقم العام ٦٦١٨)، توفي بدمشق سنة ٩٠٥ هـ / ١٥٠٠م. ولم أعثر على ترجمة وافية له فيما بين يدي من مصادر. انظر: شذرات الذهب: ٨ / ٢٧.

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله فارح الهم واسع الكرم والصلاة والسلام على نبيّه المبعوث إلى العرب والعجم وعلى آله وأصحابه والتابعين ذوى الهمم.

ويعد

فإن القصيدة المسماة بالمنفرجة نظم الإمام العالم العامل العارف بالله تعالى أبى الفضل يوسف بن محمّد بن يوسف المعروف بابن النحوى، أعاد الله علينا من بركاته والمسلمين لما احتوت على حكّم وفوائد ومواعظ وفرائد، واشتهر عن العلماء وأرباب القلوب أنهم إذا ضاق بهم أمر وقرأوها فتخرج عنهم الكروب.

وكان شرحها الأستاذ الجامع لأشتات العلوم أبى العباس أحمد بن أبى زيد النقاوسى^(١) رحمه الله تعالى، وقد احتوى من العلوم والحكم والآداب الشرعية على ما يبهر الناظر ويشرح خاطر، وكانت هذه السنة وهى سنة ثلاث وسبعين وثمان مائة، قد حصل للمسلمين كافة شدة مهولة بسبب ارتفاع الأسعار وغيره ولبعض أكابر بلدتنا دمشق خاصة بسبب تغير الخواطر الشريفة. سرى فى خلدى بتحريك مُصرّف القلوب أن أنتزع من الشرح المذكور وغيره ما يوضّح معنى أبيات القصيدة تفاؤلاً باسمها وممارستها لعل الله تعالى أن يقرب الفرج، فإنّ نبينا ﷺ كان يحبّ الفال.

على أنّه قد تصدّى بعض شيوخنا لاختصار الشرح آتياً بغالب مقاصده وأنا أعتصم بالله وأتوكّل عليه وأشعر فيما قصدته وأجعله هدية للمخدوم المشار إليه مع سؤال الله تعالى أن يفرج كربته، ويكشف غمّته، إنه على كل شىء قدير، وبالإجابة جدير.

١. هو أحمد بن عبد الرحمن النقاوسى البجائى، أبو زيد (ت ٨١٠ هـ) له أشهر شرح للمنفرجة وقد أسماه «الأنوار المنبلجة فى بسط أسرار المنفرجة». وقال تلميذه أبو زيد عبد الرحمن الثعالى: هو شيخنا الإمام المحقق الجامع بين علمى المنقول والمعقول، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنينة. انظر: نيل الابتهاج: ١١١.

اعلم أنّ الشيخ الناظم أصله من تَوَزَّر^(١) واستوطن القلعة الحمادية وكانت إذ ذاك محط رجال الأفاضل من بني حماد .

كان أبو الفضل بن النحوى فى بلادنا بمنزلة الغزالي^(٢) فى بلاد العراق فى العلم والعمل.

وقال الفهرى^(٣): كان إماماً عالمًا، مجاب الدعوة، متكلمًا فصيحًا.

وحكى أنه عزم إلى الحجاز الشريف فشكى أهله ضياع حالهم فى غيبته فكتب لهم رقعة وقال: احتفظوا عليها، فكان شخص فى غيبته يأتهم كل يوم بما يحتاجون إليه حتّى رجع الشيخ ففتشوا الرقعة بعد هذا فإذا فيها شعر:

إن الذى وجهت وجهى له هو الذى خلفت فى أهلى
فإنه أرفق منى بهم وفضله أوسع من فضلى

ولما قدم سجلماسة^(٤) نزل بمسجد ابن عبد الملك ليدرس الأصلين فمرّ به

١. توزر: بالفتح ثم السكون، وفتح الزاى، مدينة فى أقصى إفريقية من ناحية الزاب الكبير، أرضها سبخة بها نخل كثير، كانت مدينة حصينة لها أبواب أربعة، هى أكثر بلاد إفريقية تمرًا، يخرج منها ثلاثة أنهار، ينسب إليها جماعة من العلماء منهم: أبو حفص، عمر بن أحمد بن عيسون الأنصارى التوزرى. انظر: معجم البلدان ٢ / ٥٨.

٢. الغزالي: (٤٥٠ / ٥٠٥هـ) حجة الإسلام، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ولد بطوس، أقام على التدريس والتعليم والفتيا والتأليف والتصنيف، له من التصانيف: 'أحياء علوم الدين'، 'تهافت الفلاسفة'، 'الاعتقاد فى الاقتصاد'، 'معارج القدس فى أحوال النفس'.... وغيرها. انظر: الأعلام: ٧ / ٢٤٧. معجم الأعلام: ٧٧٦. الإعلام بوفيات الأعلام: ٢٠٨.

٣. لعله: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم الفهرى (ت ٦١٢هـ) الشيخ الفقيه، الأصولى المتكلم، العالم المجتهد، من أهل بجاية، رحل إلى المشرق وولى قضاء المدن بجزيرة الأندلس، واستخلف بمراكش. وولى قضاء بجاية ثلاث مرات: انظر: عنوان الدراية: ٢٠٨، نيل الابتهاج: ٢٧٨.

٤. سجلماسة: بكسر أوله وثانيه وسكون اللام، مدينة فى جنوبى المغرب فى طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهى فى منقطع جبل دَرَن. انظر: معجم البلدان: ٣ / ١٩٢. المسالك والممالك: ٣٤.

عبد الله بن بسّام^(١) وكان من رؤساء البلد فقال: ما العلم الذي يقرّبه هذا الإنسان؟

قيل له: أصول الدين وأصول الفقه، وكانوا قد اقتصروا على علم الرأي. فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علوماً لا نعرفها. وأمر بإخراجه من المسجد، فقام أبو الفضل من مكانه ثم قال: أمتّ العلم أمانك الله هنا.

وكانت عادة أهل البلد أن يعقدوا أنكحتهم في المسجد بسحر فحضر ابن بسّام في اليوم الثاني سحرًا في المكان المذكور بسبب عقد فمرّ به جماعة من صنهاجة فقتلوه بالرماح.

وحكّي أنه كان يلبس البياض فدخل عليه شاب من طلبة العلم ليُسلم عليه فأراق الحير على ثوب الشيخ أبي الفضل فخجل، فقال: كنت مفكرًا في أي لون أصبغ هذا الثوب فالآن أصبغه (حبري) فجرّده وبعثه إلى الصباغ.

وكان إذا احتاج وتأخر عنه ما يأتيه من بلده دعا بالدعاء المأثور عن الخضر عليه السلام فيما حكاه الغزالي في كتاب الأمر بالمعروف من كتاب 'إحياء علوم الدين' فيفرج عنه. وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كما علمت ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة بيدك، اجعل لي من كلّ همّ أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا. اللهم إن عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه وما قصرت فيه، أدعوك آمنًا وأسألك مستأنسًا وإنك المحسن إليّ، وإني المسئئ إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودّد إليّ بالنعم، واتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بفضلك حملتني على الجرأة عليك، فجد بفضلك وإحسانك عليّ، إنك أنت التوّاب الرحيم.

١. عبد الله بن بسّام (ت بالقرن الخامس الهجري) ولم أفق على ترجمته، لكنه يبدو أنه كان أميراً على مدينة سجلماسة في حياة أبي الفضل ابن النحوي.

توفى الناظم بقلعة آل حماد سنة ٥١٢هـ، وفيها توفى الغزالي برحمهما الله تعالى. وسبب نظمه لهذه القصيدة أن بعض المتغلبين عدا على أمواله وأخذها وأذاه فبلغه ذلك، وكان بغير مدينته، فأنشأ هذه القصيدة فرأى ذلك الرجل تلك الليلة رجلاً في يده حربة وقال: إن لم ترد على فلان أمواله وإلا قتلتك بهذه الحربة، فاستيقظ مذعوراً وأعاد عليه أمواله، وقيل غير ذلك.

ونقل عن جماعة من المعتبرين إنها مشملة على الاسم الأعظم، وأنه ما دعا بها أحد إلا استجيب له.

وكان الإمام المجتهد تقي الدين السبكي^(١) رحمه الله تعالى إذا أصابته أزمة ينشدها. كما نقل ذلك ولده تاج الدين^(٢).

وقال بعضهم: من قرأها على طهارة وقلبه حاضر من غير أن يكلم أحداً أربعين مرة، وسأل الله تعالى حاجته قُضيت.

وقد رويتها عن الشيخ العارف بالله تعالى الجامع للعلوم شهاب الدين أحمد ابن يونس الصنهاجي ثم الحميري عن الشيخ كرامة الزلدوي عن الأستاذ أبي العباس أحمد النقاوسى عن أبي موسى الغبريني^(٣) عن أبي القاسم الغبريني^(٤)

١. تقي الدين السبكي: (ت ٧٥٦هـ) تقي الدين، أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي السبكي الأنصاري الخزرجي، شيخ الإسلام، ولي التدريس في أماكن كثيرة في مصر والشام وتصدى لابن تيمية ورد عليه في مسألتى: الطلاق، وزيارة قبر النبي (ﷺ)، وتولى قاضى قضاة الشام عام ٧٢٩هـ وله من المصنفات ما يربو على نحو ١٥٠ مصنفاً. انظر: الأعلام: ١١٦٠/٥، مقدمة تحقيق طبقات، الشافعية (الحلو/الطناحي).

٢. تاج الدين أبو نصر (ت ٧٧١هـ) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري الخزرجي، احتل مكان الصدارة في الفتيا والتدريس، ولد بمصر، وتولى مناصب عديدة في مصر والشام. انظر: الأعلام ٤/ ٣٢٥. معجم الأعلام: ٤٧٥. مقدمة طبقات، الشافعية.

٣. لم أقف على تراجمهم.

٤. أبو القاسم الغبريني (ت بعد ٧٧٠هـ) أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني، أبو القاسم التونسي، فقيهاً ومنقياً، أخذ عن ابن عبد السلام وطبقته، وتولى الفتيا بتونس. انظر: نيل الابتهاج: ١٠٤.

عن أبي عبد الله بن صالح الكنائى عن الشيخ الناظم رحمه الله. وهذا أوان الشروع فى حل أبياتها وبالله المستعان.

اشتدى أزمة تنفرجى قد أذن ليلىك بالبلج

الإشتداد: التقوى من الشدة وهى القوة. والأزمة: القحط وأصلها العض والضم بقوة، وهى هنا ما يصيب الإنسان من الحوادث المقلقة. والانفراج: ذهاب الهم. وأذن أى: أعلم، وخص الليل بالذكر فى إرادة الزمن المطلوبة لاشتداد الكرب، فكأنه قال: أذن غمك وكريك. والبلج بفتح اللام: وضوح الصبح وهو هنا استعارة للفرج لاشتراكهما فى الأذهاب، فإن النور يذهب الظلمة، والفرج يذهب الحزن ويوجب الفرح والسرور.

والمصراع الأول نص رسول الله ﷺ، وطلبه من الأزمة الإشتداد ليس مقصوداً على الحقيقة وإنما المقصود طلب الفرج، بنزول الشدة لما ثبت واستقر عنده ﷺ بالوحى إن الشدة سبب الفرج، فنزل السبب منزلة المسبب لحصول التسلية وتأنيس النفس بأن الشدة نوع من النعمة لما يترتب عليها من الخيرات عاجلاً بهجوم الفرج، وآجلاً بحصول الثواب الجزيل.

قال الله تعالى: ﴿مَجْمَلُ اللَّهِ بَعْدَ عَمْرٍ مُتْرَاكٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٣) أى: قرب العسر يسر بدليل البعد به فى غيره.

وقال ﷺ لابن عباس (٤) رضى الله عنهما فى الحديث المشهور "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك. تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة،

١. سورة الطلاق: ٧.

٢. سورة الشورى: ٢٨.

٣. سورة الانشراح: ٦ / ٥.

٤. ابن عباس: (ت ٦٨هـ بالطائف) أبو العباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، الإمام البحر، ترجمان القرآن، ابن عم رسول الله (ﷺ)، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول (ﷺ) بالحكمة والتفقه. انظر: معجم الأعلام: ٤٤٤. الإعلام بوفيات الأعلام: ٤٤.

واعلم إنما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبك. واعلم إن النصر من الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً^(١).

وكان سحنون الإمام الجليل^(٢) إذا ضاق عليه أمر يقول: ضيقى تنفرجى يا ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين.

واشتكى إلى الشيخ أبي اسحاق النسائي^(٣) رحمه الله تعالى ببعض الأشرار ثم عاد إليه المشتكى وذكر أن أمره اشتد معه فقال: الآن قرب الرجاء في الله، فكفى الله شره، ودفع ضره بموته. ومن فر إلى الله أواه الله، ومن التجأ إليه عافاه ووقاه. وفى البيت إشارة أيضاً إلى أن سلوك طريق الآخرة فيه على النفس أعظم مشقة ويعقبها أتم فرج.

وظلام الليل له سُرجٌ حتى يغشاه أبو السرج

الظلام خلاف النور، والشمس: تسمى سراجاً، والغشيان بكسر الغين: الإتيان.

والظاهر أن الشيخ أراد بهذه الألفاظ معانيها الحقيقية. فأبو السرج هو الشمس فإن أنوار القمر مستفادة منها وغلبها الشيخ على النجوم. فكلامه فيه تشبيه ذكر أحد طرفيه، وهو المشبه به وطوى ذكر المشبه، فكأنه يقول: المصائب وأحزانها الشديدة لا بد فى أثنائها من أنطاف يخفيه معها الغم حتى يتفضل الله تعالى بالفرج التام الذى لا يبقى معه كرب كالليل المظلم جعل الله الكواكب فيه يقل بها ظلامه ويخف فيضه حتى يأتى النهار فيذهب ظلامه كله وتشرح النفس بتمام النور واستكمال الضوء.

قال ابن عطاء الله^(٤): من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره.

١. ورد الحديث بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢ / ٣٢٨، مسند أحمد ١ / ٢٩٣.
٢. سحنون: (ت ٢٤٠هـ) عبد السلام بن سعيد التتوخي، من أئمة الفقه القلائل. انظر: معجم المؤلفين ٥ / ٢٢٤. معجم الأعلام: ٢٩٥. الإعلام بوفيات الأعلام: ١٠٧.
٣. لم أقف على ترجمته.

٤. ابن عطاء الله: (ت ٧٠٧هـ) ابن عطاء الله السكندري، تلميذ أبي العباس المرسى، أشهر صوفى زمانه، ومن أشد خصوم ابن تيمية، له الكثير من المصنفات منها: "التنوير فى إسقاط التابير". الحكم العطائية، "لطائف المتن". انظر: طبقات الشعرانى رقم ٣١٢.

وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبان تجى

السحاب: الغيم، ويجمع قياساً على: سَعْب، وسَحَاب. والخير ضد الشر. والمطر واحد والأمطار المعروفة. والإبان بالكسر وتشديد الباء: الوقت.

والشيخ لما سلى ذوى الشدائد بأنها وإن عظمت وتناولت ففى ثياها أطفاف. تؤذن بأن الشدة لا بد أن يتكامل فرجها، أشار هنا إلى التزام الصبر فى زمن الشدة لأن الفرج لا يأتى إلا فى زمانه المقدر كالسحاب التى تكون عنها الخصب ينزول المطر لها وقت مقدر لا تحصل إلا فيه.

فالعقل إذاً لا يسعه إلا الصبر، ويكون الجزع حينئذ مخنة للقلب بغير فائدة بل يورث سخط الله ومقته فينبغى أن يكون حظه التسليم لمدير الأمور بحكمته وتحسين الظن بسعة رحمته.

قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح: ﴿وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤) ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ (١).

فانظر كيف أعقب تفويضه الوقاية من الأسوء والنصر على الأعداء وبلوغ المراد. ثم إن انتظار الفرج بلزوم الصبر من أجل العبادات ويعين عليه استحضار رحمة الله بعباده المؤمنين، وإنه عالم بعواقب الأمور، ولعل الفوائد فى صور الشدائد.

قال السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى (٢): اللّهم إنّنا قد عجزنا عن دفع الضّرّ عن أنفسنا من حيث نعلم، بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

ويكفى العاقل قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (٣).

١. سورة غافر: ٤٤.

٢. أبو الحسن الشاذلى: (٥٩١ / ٦٥٦هـ)، أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلى المغربى رأس الطائفة الشاذلية، وواحد من كبار الأئمة المتصوفة فى عصره، سكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب لها. انظر: معجم الأعلام: ٥٢٣. الإعلام بوفيات الأعلام: ٢٧٤.

٣. سورة البقرة: ٢١٦.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١).

وليتذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام من الأنبياء والأولياء والأعزة على الله عز وجل، وكم من أراد أمراً فصرفه الله عنه، فوجد لذلك غمماً في قلبه حتى إذا كشف له عن خافيته علم أنه سبحانه نظر له بنظره السيد من حيث لا يدري، ولطف به من حيث لا يعلم وما أحسن ما قيل:

توقع صنع ربك سوف يأتي بما تهواه من فرج قريب
ولا تأيس إذا ما ناب خطب فكم في الغيب من عجب عجيب^(٢)
وقال الآخر^(٣):

إذا اشتد بك الأمر فمكر في ألم نشرح^(٤)
ففسر بين يسرين إذا ذكرته فافرح
تري يسرين قد داراً على عسر فلم يبرح
وفوائد مولانا جملٌ لسروح الأتقس والمهج

١. سورة: النساء: ١٩.

٢. البيت الثاني، أورده الإمام الغزالي في منهاج العابدين: ١٦٥. ولم أقف على قائله.

٣. الأبيات أوردها الغزالي في منهاج العابدين: ١٦٥.

وأوردها الثعلبي في الكشف والبيان. فقال: سمعت أبا القاسم الحصن بن محمد بن الحسن النيسابوري يقول: سمعت أبا علي محمد بن عامر البغدادي يقول سمعت عبد العزيز بن يحيى يقول: سمعت عمي يقول: سمعت العتبي يقول: كنت ذات يوم في البادية بحالة من الغم، فألقى في روعي بيت شعر فقلت:

أرى الموت لن أصبح ولاح مغموماً له أروح

فلما جنَّ الليل سمعت هاتنا يهتف، من الهوا يقول:

ألا أيها المرء الـ متى الهم به بـرح
وقد أنشد بيستألم يزل في فكره يسرح
إذا اشتد بك العسر فمكر في ألم نشرح
فسر بين يسرين إذا فكرتها فافرح

قال: فحفظت الأبيات، وفرج الله غمي. انظر: الكشف والبيان ١٠ / ٢٢٥.

٤. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَوَدَّعَ الْاْتْرِيَّةُ﴾ سورة الإنشراح.

الفوائد: جمع فائدة، وهى ما استفيد لنفع الدّين والدّنيا. والمولى: مفعول من
 الولى بالسكون وهو القرب، فالله تعالى ولى عبده أى: قريب منه بالمعنى لا
 بالمكان لاستحالته فى حقّه. جُمِلَ أى: مستكثر من أنواع لا تحصى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١).

وواحد. الجمل جملة: فعلة بمعنى مفعولة. والسروح بالمهملتين واحدة سَرَحَ
 وهو فى الأصل المال السائر أى: الراعى كالبقرة والإبل والغنم، واستعمل هنا فى
 السارج من الأنفس لطلب منفعة معاش أو معاد، وروى بالمعجمة من شرح الصدر
 وجمعه باعتبار الأنواع. والمهج: جمع مهجة، قيل: هى الدم، وقيل: دم القلب
 خاصة، وقيل الروح، وهو مراده.

والمعنى: عطايا الله وافرة معدة لشرح النفوس بإذهاب أحزانها فكيف
 يئس العاقل عند اشتداد الأزمة، وتطاول الكربة مع أن فى ضمن الشدائد
 فوائد. فقد قال رجل للنبي ﷺ أوصنى، فقال: لا تنهم الله فى أمر قضاه
 عليك.

وروى الشيخان (٢) عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى (٣) عنهما أنهما
 سمعا رسول الله ﷺ يقول: "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا
 حزن حتى الهم يهّمه إلا كفر الله من سيّاته" (٤).

١. سورة النحل: ١٨.

٢. الشيخان: الإمام البخارى ومسلم وستأتى ترجمتهما لاحقاً.

٣. أبو هريرة: (ت ٥٧هـ تقريباً)، اختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافاً كبيراً. قال النووى:
 أصح الأقوال فيه: عبد الرحمن بن صخر، وهو من دوس قبيلة باليمن، كان من الحفاظ.
 المواظين على صحبة رسول الله (ﷺ) فى كل وقت، روى الكثير، وقد أسلم عام خيبر
 سنة ٧ هـ. انظر: المعارف: ٢٧٧. الإعلام: ٣٩.

٤. أبو سعيد الخدرى: (ت ٧٤هـ) سعد بن مالك، منسوب إلى الخُدرة، وهم من اليمن.
 صحابى. روى الحديث عن النبي (ﷺ). وكان أخاً لقتادة بن النعمان لأمه. انظر: المعارف:

٢٦٨. معجم الأعلام: ٣٠٠. الإعلام: ٤٦.

٤. صحيح مسلم (٢٥٧٣) / ٤ / ١٩٩٢، شرح مشكل الآثار: ٥ / ٤٧٤.

وروي من حديث ابن مسعود^(١) قال: قال رسول الله ﷺ "ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها"^(٢).
وروى البخاري^(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ "من يُرد الله به خيراً يصب منه"^(٤).
وروى مسلم عن صُهيب^(٥) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ "عجباً لأمر المؤمن إن أمره لله خير له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابه شراً شكر فكان خيراً له، وإن أصابه ضرراً صبر فكان خيراً له"^(٦).

١- ابن مسعود: (ت ٣٢٢هـ بالمدينة) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي. صحابي ابن صحابه. كان سادس ستة في الإسلام لا مسلم غيرهم، هاجر الهجرتين، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو الذي احتز رأس أبي جهل في بدر. كان من سادة الصحابة وأوعية العلم وأئمة الهدى. انظر: المعارف: ٢٤٩. معجم الأعلام: ٤٥٩. الإعلام: ٣١.

٢- أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما.

٣- البخاري: (١٩٤ / ٢٥٦هـ) أبو عبد الله، محمد إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، البخاري مولدًا. صاحب أهم كتاب في الحديث وهو الصحيح الذي قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله، له كثير من التصانيف منها: "الجامع الصحيح"، "الأدب المنرد"، "رفع اليدين في الصلاة"، "بر الوالدين"، "التاريخ الكبير".... وغيرها. انظر: معجم الأعلام: ٦٧٩. الإعلام: ١١٤.

٤- صحيح البخاري: ٥ / ٢١٤٣، ويلتظ آخر في الموطأ: ٢ / ٩٤١.

٥- مسلم: (٢٠٤ / ٢٦١هـ) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، ثاني اثنين في التصنيف في الحديث، صاحب "الصحيح" له من التصانيف الكثير منها: "أوهام الحديث"، "طبقات التابعين". انظر: مقدمة صحيح مسلم ٢ / ١. معجم الأعلام: ٨٢٧. الإعلام: ١١٦.

٦- صهيب: (ت ٢٨هـ بالمدينة) صهيب بن سنان الرومي، يعرف بذلك لأنه أخذ لسان الروم، إذ سبوه وهو صغير، وهو من النمر بن قاسط، عربي لا يختلف علماء النسب في ذلك كان أبوه عاملًا لكسرى، وكانت منازلهم بأرض الموصل، سبى صهيب وهو صغير فنشأ بالروم فصار أكن. وكان من السابقين الأولين للإسلام. وكان من المستضعفين بمكة، ودفن بالبقيع. انظر: المعارف: ٢٦٤.

٧- صحيح مسلم ٤ / ٢٢٩٥ كتاب الزهد (٥٢). ومشكاة المصابيح ٢ / ٣٢٧.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطايا.

وكان السلف الصالح يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يُصابوا فيه بنقص من نفس أو مال.

ويقال: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع بروعة أو يُصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد.

ولها أرج محيي أبداً فاقصد محياً ذاك الأرج

الأرج: انتشار ریح الطيب. والإحياء، وهي صفة تقتضى الحس والحركة الإرادية. والأبد: الدائم. والقصد هنا: الاتيان. والمحيا بفتح الميم: مفعول من الحياة يطلق عليها وعلى زمانها ومكانها كالمات وجمعها معاوى وممات، والضمير المجرور عائد على الفوائد.

فأخبر بأن لتلك الفوائد أموراً تدل عليها وأسباباً توصل إليها وهي ما يمن الله تعالى من المعاملات الدينية أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٢). قال أبو العباس المرسى قدس الله سره (٣): للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى. ثم أمر الناظم بتلك المراعاة بقوله: فاقصد إلى آخره أى: اقصد ذلك الأرج الشريف وزمانه أو مكانه.

فلرَيْتما فاض المحياً ببحور الموج من اللجج

١. سورة الأعراف: ٩٦.

٢. سورة الطلاق: ٢، ٣.

٣. أبو العباس المرسى: (ت٦٨٦هـ) الشيخ الإمام أحمد. أبو العباس المرسى. كان من أكابر العارفين كان يقال: إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي عنه غير أبي العباس المرسى. وهو من أجل من أخذ عنه الطريق. لم يضع شيئاً من الكتب. انظر: طبقات الشعراى رقم ٣١٠.

رَبَّتْ: لتأنيث الكلمة. وفيض الماء: كثرته حتى يسيل ثم تستعار لكثرة المعروف وهو المراد هنا. والبحور: جمع بحر خلاف البرّ سمّي بحراً لعمقه وسعته، ويستعار لسعة المعروف. والموج: الارتفاع يقال: ماج البحر موجاً إذا ارتفع ماؤه واضطرب. واللجج: جمع لجة وهو معظم الماء ومنه بحر لُجّ.

المعنى إن امتثلت أمرين يفمرك فضل الله في الدارين فيذهب غمك ووصبك وتتعجل مسرّتك ويفيض مولاك عليك خيراً واسعاً كالبحور المتلاطمة أمواجها من كثرتها، ومن توكل على الله في أوقات شدّته واحتداد كربيته واقتصص الفوائد من الشدائد بلزوم الصبر والتسليم والرضا بما قدره الله جلّ جلاله ثم حسن الظن بالله تعالى الذي هو ثمرة المعرفة، فاض محياه لا محالة بخير كثير في الدنيا والآخرة، وشاهد من عجائب صنع الله وخصي لطفه ووفى كرمه ما قضى منه العجب.

والخلق جميعاً في يده فذو سعة وذو حرج

جميعاً: فعياً بمعنى منقول من الجمع وضم المتفرق. واليد: في الأصل الجارحة وتطلق على النعمة مجازاً لصدورها عنها، وعلى القدرة أيضاً لظهور سلطانها بها، ولما أضافها إلى المولى سبحانه وتعالى بطل قطعاً إرادة المعنى الحقيقي لاستحالته في حقّه تعالى، فالظاهر أنه أراد بها القدرة. والسعة: مصدر من وسع الشيء سعة إذا صار واسعاً وحقيقة الواسع كلّ محلّ تحمل من الأجزاء والأعيان أكثر ما تحمله ضدّه الذي هو الضيق. والحرج: الضيق.

والمعنى: أن الخلائق كلّ واحد منهم كائن في نفوذ قدرته تعالى فيه بما أراد، فمنه العطاء والمنع، والضرب والنفع، والسعة والضيق لا يسئل عما يفعل.

ونزولهم وطوعهم فإلى دركٍ وعلى درجٍ

النزول: الانتقال من علو إلى أسفل، ويستعار لتبديل الأحوال الشريفة بالخشيسة. والطلوع ضدّه فيهما. والدرج: اسم جنسه واحده درجة وهي المرقاة، وأيضاً الواحدة من طبقات المراتب المرتفعة. والدرك بفتح الراء وسكونها: القعر. به درك جهنّم، وهي ضد الدرج، ومن ثمّ قيل: الجنة درجات، والنار دركات.

أشار في هذا البيت والذي قبله إلى معنى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (١) ليُنْبِئَهُ على استشعار الخوف والرجاء والتوكل والتسليم لأمر الله والتفويض إليه في الأمور، ليؤكد أمر الصبر الذي هو أساس التقوى من حيث أن القيومية مقتضاها تنفرد الحق بالقيام على خلقه في الدنيا والآخرة، ولما كان المعنى الشريف يوجب لمن قام به منزلة عند الله وعند الناس، وضده ويوجب له الانحطاط، استعار الناظم لذلك الطلوع والنزول.

وَمَعَايِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ لَيْسَتْ فِي الْمَشَى عَلَى عَوْجِ

المعيشة: من العيش وهو الحياة اسم لما يعاش به من المطاعم والمشارب. والعاقبة: آخر الأمر. والمشى: معروف، وهو هنا استعارة لحصول المعاش والعواقب شيئاً فشيئاً فكأنها ماشية إلى من ينتفع بها قاصدة إليه، وفي هذا إشارة إلى الإجمال في الطلب فقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: "اتقوا الله واجملوا في الطلب" (٢) فالحرص حينئذ لا يحصل شيئاً لم يقدر وضده لا يمنعه. والعوج بكسر العين: ما كان غير منتصب القائمة كالأرض، وأما ما كان منتصباً كالرمح فهو عوج بفتحها.

ومعنى البيت: أن معاش الخلق وأسبابهم في الدنيا، وعواقبهم في الآخرة مرادة مقدرة تتوجه إليهم على سابق علمه ونافذ حكمه، ليست اتفاقية فتكون مضطربة غير مستقيمة، بل هي في ترتيبها وتقديرها كطلوعهم ونزولهم وسعتهم وجرهم.

حِكْمَهُمْ نُسِجَتْ بِبَيْدِ حِكْمَتِ ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسِجِ

الحكمة: صواب الأمر وسداده وأفعال الله كذلك: لأنه يتصرف في خلقه بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء وافق غرض العبد أم لا، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون (٣)، ولا خفاء بعدم إرادة حقيقة اليد، فالمراد: القدرة. والانتساج: مطاوع

١. سورة البقرة: ٢٥٦.

٢. نواذر الأصول: ٢ / ٢٨٨، مصنف عبد الرزاق: ١١٧ / ١٢٥، سنن ابن ماجه ٢ / ٢٢٥.

٣. إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ في الأنبياء: ٢٣.

النسج وهو الالتحام بحيث يكون المنسوجان كلحم واحد، وهو هنا استعارة لشدة لزوم المقادير للعبد، فكأنها كذلك ملتحمة به إذ لا انفكاك عنها ولا لها عنه، والمنتسج: الملتحم، وهو هنا العبد المقضى عليه.

فانناظم شبه العبد بسدّ النسجة من حيث كونه هدفاً ومحلاً متغيراً ظاهراً وباطناً بتلك المقادير المتعلقة به المتعاقبة عليه كتغير سدّ النسجة حالاً ومالاً بما يرد عليه من الخيوط فلا محيد له عما قدر الله عليه في الأزل من سعة وضيق، وفرج وحزن، وغير ذلك.

قال نبينا محمد ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"^(١).

فإذا اقتصدت ثم انعرجت فبمقتصد وبمنعرج

الاقتصاد: افتعال من القصد وهو التوسط بين الإسراف والتقتير. والانعراج: الانعطاف والميل عن القصد. والمقتصد بفتح الصاد: موضع الاقتصاد، وبكسرهما: اسم الفاعل، وهو المروى هنا عند الشارح. والمنعرج بفتح الراء: موضع الانعراج، والرواية عند الشارح بكسرهما كالمقتصد.

لما بين الشيخ رحمه الله أن حركات الخلائق ومساكنهم صادرة عن القدرة الأزلية بالحكمة الإلهية أعقب ذلك بيان أن تلك المقادير سداد وصواب في نفس الأمر، سواء حكم العقل باقتصادها أي توسطها في السداد أو حكم بانعراجها أي ميلها عنه ويظهر حينئذ في العبد المقضى عليه بها تأثر بها وتكيف بأحوالها فتتبدل عليه الأحوال^(٢) ويصير مقتصداً إن اقتصدت، ومنعرجاً إن انعرجت فيتعرف إليه الحق جلّ جلاله في حال اقتصادها باسمه الحليم اللطيف ونحوه، وفي حال انعراجها باسمه القاهر العدل الحكم ونحوه. وأما في نفس الأمر فهي

١. مسند الامام أحمد (٦٢١) / ١ / ٨٢.

٢. الأحوال: الحال عند أهل الحق - الصوفية - هو معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قيض أو بسط أو هيئة، ويزول بظهور صفات النفس، فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تحصل بالجوود والمقامات تحصل ببذل المجهود. انظر: التعريفات: ٩٤. لطائف الإعلام: ١ / ٤٠٣.

سداد وصواب لأنها صادرة عن ملك الملوك المتصرف، في ملكه كيف يشاء ويختار، وقد استأثر الله تعالى بعلمه الحكمة في ذلك، وأخفاه عن خواص خلقه. فالواجب على العبد حينئذ تسليم الأمر لمن له الخلق والأمر، لا إله إلا هو.

شَهِدَتْ بِعَجَائِبِهَا حُجْجٌ قَامَتْ بِالْأَمْرِ عَلَى الْحُجْجِ

الشهادة: خبر قاطع عن أمر يختص بمعنى يتضمن صور المخبر فيخرج الإقرار، وأصلها البيان وهو المراد في البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١) ولما كان الخبر الخاص مبيناً للحق من الباطل سُمِّيَ شهادة، وسُمِّيَ المخبر به شاهداً، فلهذا شبه الدلالة في كمال وضوحها بالشهادة. والعجائب: جمع عجيبة وهو ما يتعجب منه. والحُجج بضم الحاء المهملة: البراهين في الأصل، وعند النظر أن الحجة أعم من البرهان؛ لاختصاصه عندهم بيقيني المقدمات. والقيام هنا الاستقلال من قولهم قام بالأمر أي: استقل به حتى يقضى الغرض منه. والأمر: واحد الأمور، والمراد به هنا للشأن أي: بشأن الربوبية. والحجج بالكسر: حجة وهي السنة. والضمير في عجائبها يرجع إلى الحكم.

والمعنى شهدت بعجائب تلك الحكم الحجج والبراهين المستقلة بالدلالة على شأن الربوبية ودامت على مر السنين وهي دائمة إلى أبد الأبدين فليس في الكون نزة إلا وهي شاهدة بلسان الحال بتفرد ذي الجلال بالخلق والإبداع والتدبير والاختراع.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢).

وَرَضًا بِقَضَاءِ اللَّهِ حِجَا فَعَلَى مَرْكَوزَتِهَا فَعُجْ

الرضاء: مقصور مكسور الأول: قبول ما يرد من قبل الله تعالى. والحجاء: العقل ومركز الدائرة، ومركوزتها: وسطها. وعاج عليه عوجاً أي: عطف. وقضاء الله: صنعه وتقديره. والتحقيق أن القضاء وجود جميع المخلوقات في الكتاب المبين واللوح المحفوظ مجملة على سبيل الإبداع، والتقدير عبارة عن وجودها منزلة في الأعيان بعد حصول شرائطها مفصلة واحدة بعد واحدة.

١. سورة آل عمران: ١٨.

٢. سورة الأعراف: ١٨٤.

قال الله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (١) أى: أبرزه على ما سبق فى علمه فى الوجود الخارجى على وفق الوجود العلمى، وقد يطلق القضاء على الشئ المقضى نفسه وهو الواقع فى قوله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ومن درك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء" (٢).

ولا يجب الرضى به على هذا المعنى ولذلك استعاذ منه ﷺ فى الحديث المذكور بخلافه على المعنى الأول فإنه يجب الرضى به بل من لم يتدلل لربه عند نزول الملمات ويسأل منه إقالة العثرات فهو جبار عنيد عن الخير والفرج بعيد عنه، وفيه قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ (٣).

ذمهم على ترك التضرع إليه فى كشف ما نزل بهم. فالواجب الرضا بالقضاء أى: بحكم الله وتصرفه وأما المقضى فلا، إلا إذا كان مطلوباً شرعاً كالإيمان ونحوه. وقد ورد أن الله تعالى يقول: "من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ إلهاً سواى" (٤).

وذكر الإمام القشيري (٥) رحمه الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلهى دتنى على عمل إذا عملته رضيت على فقال: إنك لا تطيق ذلك فخر موسى ساجداً متضرعاً. فقال: يا بن عمران: إن رضائى فى رضاك بقضائى. وقال بعض الزهاد: إذا كان القدر حقاً، فالهم فضل.

١. سورة النور: ٢.

٢. صحيح البخارى: ٥ / ٢٣٣٦.

٣. سورة المؤمنون: ٧٧.

٤. الحديث أورده الطبرانى فى الكبير، وابن حبان عن أبى هند، وأورده الغزالي فى منهاج العابدين: ١٥٩.

٥. القشيري: (٢٧٦ - ٤٦٥هـ) زين الإسلام، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري، عربى النسب، يتصل إلى قشير العدنانية. بدأ دارساً للحساب ثم تحوّل إلى الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب، اشتغل بالتدريس فى مسجد طراز، له أكثر من خمسة وعشرين مصنفاً منها: "ترتيب السلوك"، "التحبير فى التذكير"، "اللمع" وله تفسير لطائف الإشارات. انظر: مقدمة لطائف الإشارات ١ / ٧.

وقيل للحسن بن علي^(١) رضى الله عنهما. إنَّ أبا ذر^(٢) يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة. فقال رحم الله أبا ذر: أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمنَّ غير ما اختار الله له.

إذا عرفت هذا فمعنى البيت: إنَّ الرضا لما كان أشرف درجات العقل الذى مُنِحَ الانسان وأكْرِمَ به من سائر الحيوان، وكان أجل المطالب الربانية، فينبغى لكل عاقل أن يطلب أعلاه وأشرفه الذى مدار صحّة الإيمان عليه كمركوزة الدائرة ويعوِّج بطلبه عليه فيطلبه من جميع أسبابه الموصولة مثل عوج محيط الدائرة بمركزها.

وإذا انفتحت أبواب هدى فاعجل لخزائنها وُج

الانفتاح: معروف، وهو هنا استعارة لتلك الموانع والحجُب والعلائق لأنها مانعة من الهدى، والهدى مصدر هداك الله للدين هدى: أرشدك، والضلال ضدّه. والعجل: الإسراع، وفى التنزيل ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(٣)، والخزائن: واحده خزانة بكسر الخاء وهو ما يُخزَن فيه. والولوج: الدخول فى الشئ.

يعنى: إن تيسر لك لحوق بمقام من مقامات^(٤) الهدى الكسبية لم تكن حاصلة لك قبل ذلك فبادر إليها على أى حالة كنت، وانتهاز فرصة الإمكان قبل مفاجآت الموت وحصول الفوت ولا تسوّف بفراغك من شغل أنت فيه فإن ذلك ضرب من الحماقة، إذ قد يهجم عليك الموت أو يزداد شغلك وتتبدّل نيتك.

١. الحسن بن علي: (٢٣٠ هـ / ٤٤٩ هـ) الحسن بن علي بن أبى طالب، أبو محمد، ولد فى نصف رمضان، كان أشبه الناس وجهاً برسول الله (ﷺ) وتوفى مسموماً. انظر: المعين فى طبقات المحدثين: ٢٢. معجم الأعلام: ١٩٩. الإعلام: ٣٦.

٢. أبو ذر: (ت ٢١ هـ) مختلف فى اسمه واسم أبيه، والمشهور إنه: جندب بن جنادة بن سكن، واسم أمه: رملة بنت الوقيعه، غفارية أيضاً، وقصة إسلامه فى الصحيحين. روى كثيراً عن رسول الله (ﷺ)، وتوفى بالريذة. انظر: المعارف: ٢٥٢. المعين: ٣٢. الإعلام: ٣١.

٣. سورة طه: ٨٤.

٤. المقامات: المقام فى اصطلاح أهل الحقيقه عبارة عما يتوصّل إليه بنوع تصرف، ويتحقّق به بضرب تطلّب ومعاناة فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، وللمقامات أنواع كثيرة. انظر: التعريفات: ٢٥٤. لطائف الأعلام: ٢ / ٣٢٥.

قال الإمام المحقق ابن عطاء الله^(١) رحمه الله تعالى: إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس.

وإذا حاولت نهايتها فاحذر إذ ذاك من العرج

المحاولة: طلب التحول أى الانتقال. والنهاية: الغاية التى ستقضى الشئ بها أو عندها، وقد يُسمى لها ثمرة الشئ وفائنته، ومنه قولهم: غاية العلم خشية الله والسعادة العظمى. والحذر: والتحذر. العرج: مصدر عرج بالفتح إذا أصابه شئ فمشى مشية العرجان وليس بخلقه. والضمير فى نهايتها يعود إلى الأبواب أو إلى الهدى لأنه يُذكر ويؤنث.

واعلم أن الشيخ لما أمر بالبداية عند ارتفاع الموانع تمم ذلك بأن الله تعالى إذا أدخلك مقاماً فالترجم فيه حسن الأدب فى اختيارك البدء والبقاء فيه، وراقب الله فى مراعاة آدابه ووائثق مراده.

وأما إذا تشوّف المرید^(٢) إلى الانتقال بنفسه ليلبغ الغاية، فقد بلغ المرید غاية الجهل وأساء الأدب فى حضرة مولاه فليحذر عند ذلك من عدم الظفر بالمطلوب. قال الإمام الجليل أبو عثمان^(٣) رحمه الله: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا يقلىنى إلى غيره فسخطته.

لتكون من السباق إذا ما جئت إلى تلك الفرج

يعنى: إذا امتثلت ما قُدر لك تكون من السباق إلى قطع تلك الفرج الواسعة فتصل معهم إلى المطلوب الأعظم قريباً بتسليمك لله والوثوق به لا بما سواه والركون إليه لا إلى غيره كائنًا من كان، لأنّ الركون إلى غير الله موجب للوبال. الفرج بضمها: الأماكن المتسعة جمع فرجة.

١. سبق الترجمة له.

٢. المرید: عند الصوفية هو المجرّد عن الإرادة. وقال ابن عربى: هو من انقطع إلى الله وتجرّد عن إرادته، فلا يريد إلا ما يريد الحق. انظر: التعريفات: ٢٣٩.

٣. أبو عثمان الحيرى: (ت٢٩٨هـ) أبو عثمان، سعيد بن اسماعيل بن سعد بن منصور الحيرى النيسابورى. أصله من الرى، لكنه أقام بنيسابور ومات بها. انظر: حيلة الأولياء:

١٠ / ٤٤. كشف الحجب: ١ / ٢٤٤. تذكرة الأولياء: ٢ / ٩٢. والنص بالتذكرة: ٢ / ٩٦.

أشار بها إلى العقبات السبع المتررة في "منهاج العابدين للإمام حجة الإسلام الغزالي^(١) رحمه الله تعالى والسير فيها ليس بفعل الإقدام، وإنما هو بنظر القلب وتأمله. قال الشيخ أبو مدين^(٢): رأيت من قطعها في سبعين عاماً، فقطع كل عقبة في عشر سنين، ورأيت من قطعها كلها في ساعة واحدة كإبراهيم بن أدهم^(٣) الذي جاءه التوفيق. قال الشنارح: وأبو مدين هذا وقع له قريب مما وقع لإبراهيم بن أدهم رحمهما الله تعالى.

فَهْنَاكَ الْعَيْشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمِبْتَهَجٍ وَلِمَنْتَهَجٍ
العيش: الحياة. وبهجته: حسنه.

والمراد هنا عيش الجنة وحسنه، "وهناك" في هذا التركيب: اسم إشارة للمكان والزمان قال الشاعر:

وإذا الأمور تعاضمت وتشابهت فهناك تعترفون أين المَفْرَع^(٤)

والمبتهج: المسرور، من الابتهاج وهو السرور. والمنتهج بالنون: من نهجت الطريق أي سلكته، والتهج بالسكون فقط هو: الطريق، وهو هنا استعارة للسلوك،

١. الإمام الغزالي: سبق الترجمة له. أما العقبات السبع المذكورة، فقال الإمام الغزالي: "فاعلم الآن بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة (العبادة) سبع عقبات: الأولى: العلم، والثانية: التوبة، والثالثة: العلائق، والرابعة: العوارض، والخامسة: البواعث، والسادسة: القوادح، والسابعة: الحمد والشكر. وقد شرحها الإمام في كتابه. انظر: منهاج العابدين: ٢٠ وما بعدها.

٢. أبو مدين: (ت ٥٩٤هـ) شعيب بن الحسن الأندلسي، من ناحية إشبيلية. شيخ فقيه محقق. شيخ مشايخ الإسلام في عصره. إمام العباد والزهاد. كتب عنه ابن قنفذ كتاباً سماه "أنس الفقير وعز الحقيير". انظر: جنوة الاقتباس: ٣٢٢ عنوان الدراية: ٢٢. نيل الابتهاج: ١٩٣. معجم الأعلام: ٣٢٤.

٣. إبراهيم بن أدهم: (ت ١٦١هـ) أبو إسحاق، إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، من أهل بلخ، كان من أبناء الملوك والمياسير، خرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طريقته في التزين بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. انظر: طبقات الصوفية: ١٢. معجم الأعلام: ١٠.

٤. البيت للأفوه الأودي بديوانه (الطرائف الأدبية): ١٩، وهو بهمع الهوامع ١/ ٣٠٥.

والمنتهج: المتقى، وانتهاجه إنّما هو بانتقاله فعلاً وحالاً في معاني التقوى الظاهرة والباطنة الموصلة إلى صفة اليقين الموجب للابتهاج.

يعني: أنه ما كان حسن الحياة إلاّ عند قطع تلك الفرج والوصول إلى النعيم المقيم فإنّ الواصل السابق قد نزل في سهل الوصل، ورياض المحبة، وبساتين الأنس متعمّاً بهذه المقامات والأحوال أيام حياته وبالمك الدائم في الآخرة بفضل الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (١).

وقال ﷺ: "يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" (٢).

وما عدّاً المبتهج والمنتهج، إما هالك كالكفرة أو في الخطر كالنجرة، فنسأل الله أن يحفظنا بفضلِهِ.

فَهَجُ الْأَعْمَالِ إِذَا دَرَكْتَ وَإِذَا مَا هَجَبْتَ إِذَا تَهَجَّجْتَ

هاج الشيء أي: ثار وتحرك، وهاجه غيره يتعدى ولا يتعدى وقد استعملها الناظم. والرکود: السكون، يقال: ركد الماء بفتحها يركد فهو راكد لما غبطه بحالة المبتهج والمنتهج أعقب ذلك بالحث على مسالك تلك الأعمال الصالحة فقال: إذا رأيت من نفسك فتوراً فحركها في الأعمال بأن تذكّرها غايتها وما يترتب عليها من الملك العظيم فإبّتها حينئذ تهيج وتشط.

سئلت أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها (٣) عن عمل رسول الله ﷺ فقالت:

كان عمله دينه.

١. سورة السجدة: ١٧.

٢. صحيح البخارى (فتح البارى) ٦ / ٢١٨ كتاب بدء الخلق (٥٩) باب ما جاء في صفة الجنة. ومسلم ٤ / ٢١٧٤ كتاب الجنة (٥١)، رقم (٢ - ٢٨٢٤). ومشكاة المصابيح ٢ / ٢٩٧ حديث رقم (٥٦١٢).

٣. عائشة (أم المؤمنين): (٥٧ هـ تقريباً) أم عبد الله، حبيبة رسول الله ﷺ، بنت خليفة رسول الله ﷺ (أبى بكر الصديق، من أكبر فقهاء الصحابة، حدّث عنها جماعة منهم، ومن التابعين كابن المسيب وعروة، وغيرهم. قال عروة: ما رأينا أحداً أعلم بالطب منها، توفيت عن خمس وستين سنة. انظر: المعين: ٣٩. المعارف: ٥٥٠. معجم الأعلام: ٢٧٢. الإعلام: ٢٩.

وقال **يَعْلِيٌّ**: أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل^(١).

ورُئي الجنيد^(٢) رحمه الله وفى يده مسبحة فقيل له: أنت بشرفك تأخذ بيدك مسبحة فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا فلا نتركه أبداً. وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلى أربع مائة ركعة.

وقال الإمام أبو طالب المكي^(٣) رحمه الله تعالى: مداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين، وطريق العابدين، وهى مزيد الإيمان، وعلامة الايقان، ولا تنشط النفس إلى العمل وتدوم عليه أبداً إلا باستشعار الخوف والرجاء وذلك بالمواظبة على ذكر مقدماتها من استحضار عظمة الله تعالى ووعده ووعيده ونحو ذلك^(٤).

ومعاصِرِ الله سَمَاجَتُهَا تزدان لذي الخلق السَّمْعُ^(٥)

المعصية: مخالفة أمر الله ونهيه. والسماجة: القبح. والازديان: التزين والحسن. وذى فى قوله لذى بمعنى صاحب. والخلق: ما طبع عليه الإنسان من المعانى التى تصدر الأفعال عنها بلا كلفة بل بسهولة مثل الكرم والشجاعة ونحوها أو ضدها. يعنى: أن قبح معاصى الله لا تحسن إلا فى نظر ذى الجهل الراسخ والغفلة التامة المعرض عن دلائل معرفة الله تعالى؛ لتمكن القسوة من قلبه فلا يقبل الحق وإن أضاعت دلائله، ويعرف الضلال وإن خفيت مخائله.

١. مسند الإمام أحمد ٦ / ٢٧٢.

٢. الجنيد: (ت ٢٩٧هـ) أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، أصله من نهاوند، ومنشأه بالعراق؛ من متصوفة الطبقة الثانية، كان فقيهاً، مفتياً فى حلته، من أئمة القوم وساداتهم. انظر: طبقات الصوفية: ٢٦. تذكرة الأولياء: ٣ / ١٩. معجم الأعلام: ١٧٤. الإعلام: ١٢٩.

٣. أبو طالب المكي: (ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م) محمد بن على بن عطية الحارثى، أبو طالب المكي، واعظ، زاهد، فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) له الكثير من التصانيف أشهرها: قوت القلوب فى معاملة المحبوب. انظر: معجم الأعلام: ٧٥٢. الإعلام: ١٦٢.

٤. بتر فى نسخة الأزهر بمقدار ورقة كاملة، إذ يبدأ بعد هذا البيت:

فكن المرضى لها بتقى

٥. فى بعض الروايات: تزداد لذى الخلق السمع.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

أى: غطاء عليها فلا تقبل معروفاً ولا تصلح للموعظة.

وقال السيد الجليل الحسن البصرى (٢): الرين: هو الذنب حتى يموت القلب.

وقال بعض الصالحين: إن سواد القلب من الذنوب وعلامته أن لا يجد للذنب

مفرعاً ولا للطاعة موقعاً.

وقال سيدنا حذيفة (٣) رضي الله عنه: القلب كالکف فإذا أذنب العبد انقبض وقبض

إصبعاً ثم إذا أذنب انقبض وقبض إصبعاً آخر ثم كذلك فى الثالث والرابع حتى

ينقبض الكف ويُطبع عليه بذلك الرين.

وفى الخبر أنه يخرج المنادى من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان بن فلان المسوف

نفسه فى الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره فى سوء العمل، فيبتدرونه بمقلمع من حديد،

وستقبلونه بعضائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه فى قعر جهنم البعيد.

ولطاعته وصباحتها أنوار صباح مُتَبَلِّجٍ (٤)

الطاعة: امتثال الأمر والنهى. والصباح: الجمال، والنور: الضياء والصبح،

الذى روى بلج الصبح بكسر لامه بلوجاً: أسفر أوله. قاله ابن طريف. وقال

الجوهري (٥): بَلَجٌ بِالْفَتْحِ يَبْلُجُ بِالضَّمِّ أَى: أضاء، وابتلج وتبلج مثله.

١. سورة المطففين: ١٤.

٢. الحسن البصرى: (ت ١١٠هـ) أبو سعيد، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، من سادات التابعين

وكبرائهم، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصارى، أمه أم

سلمة زوج النبى ﷺ مولده لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب توفى بالبصرة. انظر:

المعارف: ٤٤٠، وفيات الأعيان ٢ / ٦٩. المعين: ٥٠. معجم الأعلام: ١٩٤.

٣. حذيفة: (ت ٢٦هـ) حذيفة بن اليمان، وهو حذيفة بن حسل بن جابر. هاجر إلى المدينة

وشهد أحداً، وبها قتل أبوه، صاحب سر رسول الله ﷺ فى المنافقين. كان موته بعد

مقتل عثمان رضي الله عنه بأربعين ليلة، قتل أباه عتبة بن مسعود، كفله رسول الله ﷺ. انظر

المعارف: ٣٦٣. المعين: ٢٢.

٤. فى بعض الرويات: ولطاعته وسماحتها.

٥. الجوهري: (ت ٢٩٨هـ) - إسماعيل بن حماد الجوهري، من الفاراب، إحدى بلاد الترك، إمام

فى اللغة، له كتاب الصحاح فى اللغة أشهر من أن يعرف به. توفى بنيسابور. انظر:

أدبابة الرواة: ١ / ١٩٥. معجم الأعلام: ١٠٢.

يعنى: طاعة الله الحسن والجمال كظهور ضوء الصباح ووضوحه تُذهب ظلمات الجهل عن القلب، لا يخفى صفو مشربها وحلو موردها إلا على من عميت بصيرته وجثت سريرته من الجهلة الغافلين والمردة المعرضين.

من يخطب حور العين بها يظفر بالهور وبالغنج^(١)

الخطبة بكسر الخاء: طلب التزويج. والهور: شدة بياض العين فى شدة سوادها، يقال: امرأة حوراء بينة الحور، والذي على الأخبار أن حور الجنة هن الكاملات الحسن فى صفاء اللون وغيره وذلك لا يوجد فى الدنيا. والخلد: دوام البقاء، وسميت به الجنة لأنها دار البقاء الدائم السالم. والظفر بفتح الفاء هو: الفوز بالمطلوب، وهو مصدر ظفر به وعليه، وظفره إذ ألحقه. والغنج بفتح الغين والنون، وبضم الغين وسكون النون هو: حسن الشكل يقال: غنجت الجارية بالكسر غنجاً بالفتح وتغنجت فهي غنجا من جوار غنج مثل حمراء من نساء حمر.

يعنى: من يطلب من الله بالطاعة تلك الجوارى الباقيات يفز بأكملهن جمالاً وشكلاً.

والشيخ لما أشار إلى مقام التوبة بتقييم المعصية وتحسين الطاعة حالاً ومالاً رغب أهل البداية فى فعلها بوصف نساء أهل الجنة فإن ذلك أقرب لانفعالهم، بخلاف أهل النهاية فإنهم لا يلتفتون إلى ذلك، ولهذا رغبتهم فى مداومة الأعمال بأنها سبب لاقتباس الأنوار كما قررناه عند قوله "فهنالك العيش وبهجته".

وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: "غدوة فى سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها"^(٢) يعنى: خمارها.

١. فى بعض الروايات: يحظى بالهور وبالغنج.

٢. صحيح البخارى: ٥ / ٢٤٠١، صحيح مسلم ٣ / ١٥٠٠.

وعنه عليه السلام أن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء أو أربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمر الدنيا^(١).

فكن المرضى لها يتقى ترضاه غداً وتكون نجي

قال الجوهري: التقى على وزن هدى والتقوى بمعنى واحد، والمراد بقوله غداً: يوم القيامة. والنجي: فعيل بمعنى فاعل من نجوت من المكروه.

يعنى: كن لها كفوّاً مرضياً تبقى كالكامل المقبول الذى ترضاه يوم القيامة لما شهد من النجاة الموجبة للنعيم المقيم الأبدى، ولا يكون كذلك إلا إذا وقع على وفق الشرع. فأشار بهذا إلى أنه ينبغي للمريد أن يحرص على الأعمال الصالحة المقبولة ثم يرجو هذه النجاة وهذا الظفر فإنه حينئذ يرجى له الحصول على مطلوبه، وأما الرجاء من غير عمل فهو الأمنية الكاذبة.

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "الكيسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى"^(٢).

وروى أنه جاء رجل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أوصنى يا رسول الله فقال: "عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لقلبك"^(٣).

وقوله: ترضاه غداً، جملة فى محل خفض نعت لتقى.

وقوله: وتكون نجي، جملة معطوفة على الأولى، ولا بد من تقدير ضمير مجرور رابط بين النعت وصاحبه أى: به، ووقف على خبر يكون المنصوب بحذف ألف التنوين، وهى لغة معروفة^(٤) وحققه بحذف يائه الثانية للضرورة.

واتل القرآن بقلب ذى حرق وبصوت فيه شجى

١. صفة الجنة لابن أبي الدنيا: ١ / ٢٨٦.

٢. سنن ابن ماجه: ٢ / ١٤٢٣.

٣. رواه الطبرانى فى المعجم الصغير ٢ / ٦٦، والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٩٩، ومجمع

الزوائد ٤ / ٢١٥.

٤. المراد بها لغة ربيعة، والأصل أن تكون نجيّاً وهى من المكروهات.

قال الإمام أبو عبيد^(١): سُمِّيَ الكلام المنزل للإعجاز بسورة منه قرأنا لأنه يجمع السور ويضمها. وتلاوته اتباع بعضه بعضاً. والقلب: الفؤاد، ويطلق على العقل لأنه محله على الصحيح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ تَعَمَّى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢).

أى: العقل، وقال: الفراء^(٣) فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٤) أى: عقل.

والحُرْق بضم الحاء وفتح الراء وبالضاد: جمع حرقة اسم للاحتراق. والمعنى: قلب محروق من الخوف والحزن، وروى بدل حرق حزن بفتح الحاء والزاي، وضم الحاء وسكون الزاي. وهو خلاف السرور. وشجى أى: حزن. فأمر الشيخ بالتلاوة للقرآن لأنها أفضل الأقوال، وأشار إلى أن النافع منها هو ما قارنه التدبير والحزن ورقة القلب.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّى تَلَائِهِمْ﴾^(٥).

وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه^(٦) مرفوعاً: أعبد الناس أكثرهم تلاوة للقرآن.

١. أبو عبيد: (ت ٢٢٢هـ): القاسم بن سلام، كان أبوه مملوكاً رومياً، وكان أبوه إمام عصره فى كل فن من علم. كان أبو عبيد قليل الرواية، حسن التصنيف مفتياً فى القرآن والفقه والأخبار العربية، له من التصانيف: الغريب المصنّف، غريب القرآن، غريب الحديث، معانى القرآن. انظر: بغية الوعاة ٢ / ٢٥٣. المعارف ٥٤٩. المعين: ١٣١.

٢. سورة الحج: ٤٦.

٣. الفراء: (١٤٤ / ٢٠٧هـ) أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أطلق عليه الفراء لأنه يفرى الكلام أى يحسن تقطيعه وتفصيله، ولد بالكوفة ونشأ بها، كان قوى الحفظ، لا يكتب ما يتلقاه عن شيوخه استغناءً بحفظه، وكان زعيم الكوفيين بعد الكسائى، ويقول ثعلب: لولا الفراء لما كانت عربية؛ لأنه خلصها وضبطها. ولولا الفراء لسقطت العربية... له من التصانيف الكثير منها: الأيام والليالى، الجمع والتشبية فى القرآن، الحدود، المذكر والمؤنث، معانى القرآن. انظر: بغية الوعاة: ٢ / ٣٣٣. المعارف: ٥٤٥. الإعلام: ٩٤.

٤. سورة ق: ٣٧.

٥. سورة البقرة: ١٢١.

٦. سبق الترجمة له.

وقال عليه السلام: "إِنَّ الْقُلُوبَ تَصْدَى كَمَا يَصْدَى الْحَدِيدُ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا جَلَاؤُهَا! قَالَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَذِكْرُ الْمَوْتِ"^(١).

وقال عليه السلام: "إِنَّ اللَّهَ قَرَأَ سُورَةَ طه وَبَسَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِأَلْفِ عَامٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ الْمَلَائِكَةُ الْقُرْآنَ قَالُوا طُوبَى لِأُمَّةٍ يَنْزِلُ عَلَيْهَا هَذَا، وَطُوبَى لِأَجْوَافٍ تَحْمَلُ هَذَا، وَطُوبَى لِأَلْسِنَةٍ تَنْطِقُ بِهَذَا"^(٢).

وقال الحسن البصرى^(٣): إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركيبونه فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه مراسيل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار.

وَصَلَاةُ اللَّيْلِ مَسَافَتَهَا فَاذْهَبْ فِيهَا بِالْفَهْمِ وَجِي

الصلاة لغة: الدعاء. وشرعاً: الأفعال والأقوال المخصوصة، والمراد بها هنا نافلة الليل. والضمير في مسافتها يعود على التلاوة. والمسافة هي: الصلاة نفسها فإنّ المفازة البعيدة محل لكثرة السير. وصلاة الليل محل الاكثار من القراءة، فكأنها لها كالمسافة. والذهاب والمجي معروفان واستعارهما الشيخ للتنكر المكرر في الآية من كتاب الله تعالى. والفهم والعلم من فهمت كذا علمته.

يعنى: أن صلاة الليل محل الاكثار من تلاوة القرآن: فاخصص تلك التلاوة بمزيد حضور وكرر الآية تأملك مرة بعد أخرى: ليحصل لك ثانياً وثالثاً أكمل ما حصل لك أولاً، فيتم لك حينئذ لذة المناجاة، وتفيض المعارف على قلبك.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾^(٤) الآية.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيتُ مَا نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾^(٥).

١. رواه ابن عدى في الكامل في الضعفاء ١ / ٢٥٨، وابن الجوزى في العلال المتناهية في

الأحاديث الواهية، ٢ / ٢٤٧، وكذلك ميزان الاعتدال ٩٠٨٥، ولسان الميزان ٦ / ٥٧٦.

٢. رواه الدرামী في مسنده ٢ / ٤٥٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥ / ١٤١، والبيهقى في

شعب الإيمان ٢ / ٤٧٦ برقم (٢٤٥٠)، وابن عدى في الكامل ١ / ٢١٨.

٣. سبق الترجمة له.

٤. سورة الإسراء: ٧٩.

٥. سورة الزمر: ٩.

وقال المغيرة بن شعبه^(١) قام رسول الله ﷺ حتى تفتّرت قدماه فقيل له قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً^(٢).
وقد ورد أن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، وتكفير للذنوب، ومطرده للداء عن الجسم ومنهارة، عن الإثم.

وتأملها ومعانيها تأتي الفردوس وتضج^(٣)
التأمل: استعمال الفكر، والضمير عائد على التلاوة. والمعاني: جمع معنى مفعول من عنا إذا قصد. والفردوس: الجنة.

ففي صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سألتم الله عز وجل فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن^(٤). وتضج أى: تزول عنك الهموم.

يعنى: أنك إذا كررت الآيات فى تلك التلاوة وتفهمت، فزت بالنجاة ودخول الجنة، جنة الفردوس، ويعدت عن الهموم، واسترحت من كدورات الدنيا، وأحوال يوم القيامة بفضل الله تعالى وجزيل كرمه.

واشرب تسنيماً مَجْرَها لا ممتزجاً ويممتزج

الشرب معروفه وقد يستعار لحفظ العلم بسرعة، فيقال: فلان شرب العلم أى: حفظه سريعاً، والجامع بينهما التحصيل بلا كلفة. وتسنيم: علم لعين فى الجنة، سميت بمصدر نسّم إذا رفعه إما لأن شرابها أرفع شراب فى الجنة أو لأنه يأتيهم من فوق على

١. المغيرة بن شعبه: (ت ٥٠هـ) أبو عبد الله، المغيرة بن شعبه من ثقيف، شهد بيعة الرضوان، وشهد اليمامة وفتح الشام واليرموك والقادسية، ولاءه عمر رضي الله عنه البصرة فافتتح ميساناً وتسمىساناً وأبزقباداً، وسوق الأهواز، وهمدان، وشهد فتح نهاوند ويقال أنه أحصن ثمانين امرأة ومات بالكوفة وهو أميرها. انظر: المعارف: ٢٩٤. المعين: ٣٣. الإعلام: ٣٦.

٢. صحيح مسلم برقم (٢٨١٩)، وصحيح البخارى برقم (١١٣٠)، والنسائى فى المجتبى ٣/ ٢١٩، والترمذى فى جامعه ٤١٢، وابن ماجه ١٤١٩.

٣. فى بعض الروايات: تأتى الفردوس وتبتهج. وفى أخرى: تأتى الفردوس وتضج.

٤. صحيح البخارى، كتاب التوحيد برقم (٧٤٢٣).

ما روى: أنها تجرى في الهواء منسمة تنصب في أوانيهم. والفجر يفتح الجيم: الماء المجرى من فجرت الماء أجريته. والمنتزج: المختلط، وقوله لا ممتزجاً أي: أن هذا الشراب يكون خالصاً لا امتزاج فيه وهو الرحيق وممتزجاً بغيره، وذلك الممزوج به إما شراب الجنة مطلقاً أو ماء كافور وهي عين في الجنة مؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده، فالحاصل أنك تجمع بين هاتين اللذتين العجيبتين لذة الرحيق، ولذة الممزوج.

مُدْحَ الْعَقْلِ الْآتِيهِ هُدًى وَهُوَ مُتَوَلُّ عَنْهُ هُجًى

المدح: الثناء. والعقل في الأصل: المنع، وفي كلامه ثمرة العقل الطبيعي الذي نيط به التكليف الشرعي. يقال: فلان عاقل إذا كان مقبلاً على تحصيل مصالحه مشغلاً بتهديب نفسه ناظراً في عاقبته، ويقابله: الخرق والهوى.

قال سيدنا رسول الله ﷺ "العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه"^(١).

والهدى: الرشاد، والتولى: الإعراض. والهجاء: خلاف المدح، والضمير المجرور بعن يعود على الهدى.

يعنى: قد أثنى الشرع على عقل أتى صاحبه من الهدى ما أفهمه أوامر الله ونواهيه إلى أن ارتقى إلى تلك المقامات وتلبس بتلك الطاعات، وذم عقل شخص معرض عنها إذا لم تحصل له الثمرة التي بها كان العقل محموداً.

وَكِتَابِ اللَّهِ رِيَاضَتُهُ لِعُقُولِ الْخَلْقِ بِمَنْدَرَجٍ^(٢)

رياضته أي: تعليمه وتأديبه ونهيه ووعده ووعيده ووعظه، وضرب أمثاله للبيان والتقريب لعقول العباد، من رضى الدابة رياضة علمتها السير. وقوله بمندرج أي: بطريق واضحة يدرج عليها لصحتها ووضوحها من درج القوم وأندرجوا: مضوا في سبيلهم.

لما بين فيما مضى أن العقل المحمود هو المرشد إلى تزكية النفس. أخذ يبين في هذا البيت أن القرب من الله تعالى إنما يكون بأجر الأعمال على سياسة الشرع بصلى ومتابعة رسول الله ﷺ بالنظر في الأدلة التي يصيبها ومرجعها إلى الكتاب، فلذا خصه بالذكر لأنه الآية الكبرى، والنعمة العظمى في بيان الأمور التي لا تهتدى إليها العقول، وفي الاعتصام من

١. أوردته الحافظ العراقي في المطالب العالية (٢٢٩٤).

٢. في بعض الروايات: لعقول الناس بمندرج.

الفتن قال رسول الله ﷺ: "إنه سيكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فضل ليس بالهزل. من تركه تجبراً قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم. هو الذى لا تزيف به الأهواء، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشيع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء من علمه سبق، ومن عمل به أُجِر، ومن حَكَمَ به عدل، ومن اعتصم به هُدَى إلى صراط مستقيم (١).

وخيار الناس هدايتهم وسواهم من همج الهمج (٢)

الخيار: خلاف الأشرار. والهادى المعروف من هديته الطريق هداية عرفته. والهمج: واحدة همجة وهو ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينهما. يعنى أنك حيث علمت أن أم أصول العلم هو القرآن العظيم ومنه يستمد العقل وبه يهتدى إلى السياسة الشرعية بالطريقة المحمدية الجامعة الخاتمة فقد علمت ضرورة فضل العلم والعلماء. لأن العلم يهdy إلى الخيرات، والعالم يهdy بعلمه النافع الذى يقارنه الهدى، وأما العلم الذى لا يكون بهذه الصفة فلا يكون صاحبه من الأخيار، بل هو شر الأشرار. فالجهال، والعلماء الذين لاهدى لهم من أرذل الرذلاء وأسفل السفلاء، وشبههم الشيخ فى قلة همتهم وخسة قدرهم بهذا الجنس الخسيس من الذباب، ثم بالغ بإضافته إلى الهمج.

قال سيدنا على بن أبى طالب (٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى وصيته لكميل بن زياد (٤): الناس ثلاثة: عالم ريانى، ومتعلم على سبيل التجارة، وهمج رُعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا منه إلى ركن (٥).

١. رواه ابن شيبه فى مصنفه (١٥ / ١٢١)، والشجرى فى أماليه (٢ / ٢٥٩)، وأورده صاحب كنز العمال برقم (٢٠٩٩٧).
٢. فى بعض الروايات: وخيار الخلق هدايتهم.
٣. الإمام على: ستأتى ترجمته لاحقاً فى المتن.
٤. كميل: (١٢ / ٨٢هـ): كميل بن زياد بن نبيك النخعى: تابعى ثقة من أصحاب الإمام على كرم الله وجهه. انظر: معجم الأعلام: ٦٣٠. الإعلام: ٤٨.
٥. انظر هذه النصائح وغيرها فى: سجع الحمام فى حكم الإمام: ٤٦٦ وما بعدها.

وقد ورد في ذم علماء السوء تشديدات يطول ذكرها، وهم الذين يقصدون بالتعلم الحظ الدنيوي، والتوصل إلى المنزلة والجاه والمال والتقدم.

قال نبينا ﷺ: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه"^(١).

وقال ﷺ: "لا يكون المرء عالمًا حتى يكون بعلمه عاملاً"^(٢).

وقال ﷺ: "يكون في آخر الزمان عبّاد جهال، وعلماء فسّاق"^(٣).

وإذا كنت المقدم فلا تجزع في الحرب من الرهج

الكون: الحصول والوجود. والمقدم: الرجل الكثير الإقدام على العدو لشجاعته، والمقدمة بالتاء للمبالغة مثل مهذار ومهدارة. والجزع: ضدّ الصبر، وهو اضطراب النفس مما نزل بها. والحرب: القتال. والرهج: بتقديم الراء: القتال. استعاره الشيخ للخواطر الواردة من النفس والشيطان بجامع ضعف الوارد.

يعنى: أن العلم والعبادة حيث عظم الخطر فيهما من جهة إنه لا ينجى منهما إلا ما وقع بشروطه التي أشرنا إليها ربما كان ذلك سبباً للفتور والكسل. فحذّر الشيخ منهما وأمر بالجد والنشاط، ومثّل ذلك بالرجل الشجاع لا يردّه عن قصده كثرة العدد. قال: كن في جدك ونشاطك قوى القلب بالله، نافذ العزم فيما تطلبه كالمقدم الذى لا يردّه عن مقصده راد وإن عظم: لقوة قلبه ونفاذ عزمه، فمن العوارض وسوسة الشيطان، وهوى النفس فإنهما يقولان: أنت لا تبلغ من تقدّم في علمه وعمله لكثرة القوادح، فاتركهما كي لا تعذب بسببهما أشدّ العذاب. فإذا قال ذلك فادفع أنت هذه الشبهة بأن تقول: إنما أنا عبد الله، وعلى العبد الامتثال. فإن الله يحكم ما يشاء، وعلى العبد المجاهدة في تحصيل الإخلاص النافع له المنجيه يوم القيامة.

وإذا أبصرت منار هدى فاطهر فرداً فوق الثبج

١. سنن الدارمي: ١ / ٩٣ باب العمل بالعلم (٢٧) رقم (٢٦٢)، مشكاة المصابيح ١ / ٦٧.

٢. إحياء علوم الدين ١ / ٥٩، طبقات الشافعية: ٦ / ٢٨٩.

٣. رواد الحاكم في المستدرک ٤ / ٣١٥، والذهبي في ميزان الاعتدال ٩٨٧٧، والسلسلة

الإبصار: رؤية العين، ويستعار لتيقن الشيء. والمنار: مفعول من النور وهو المحلّ الذى يحمل فيه النور، ومنه المنارة التى يوضع عليها السراج، ويطلق أيضاً على العَلم الذى ينصب فى الطريق للاهتداء به. والظهور هنا: العلو من قولهم: ظهر على البيت أى علا. والثبيح: من كل شىء أعلاه. قال الجوهري^(١): ويقال ثبج كل شىء أوسطه.

يعنى: إن أخذت فى الجدّ فى العلم والعمل وأعرضت عن الرهج وظهر لك أمر واضح كالمنار يتحقق عنده الوصول إلى مقاصد الهدى الشريفة؛ فجدّ فى طلبه واستعداد أسبابه حتى تصل إلى المقصد الجليل ويحصل لك أرفعه وأشرفه، فتكمل لك مراتب الهداية وتكون حينئذ كمن تنسّم شيئاً عالياً أو حلّ بالوسط الذى هو مظنه الأمن والقرار، وكن مع ذلك سابقاً إليه منفرداً.

وإذا اشتاقت نفس وجدّت ألماً بالشوق المعتلج

الاشتياق: التهيج، وهو تحرك النفس إلى ما تميل إليه. ووجد مطلوبه يجده بالكسر أى: ظفر به بعد أن لم يكن به ظافراً. والتوين فى قوله ألماً للتكثير أى: آلاماً شديدة. والمعتلج: مفعول من العلوج وهو الغلط والاشتداد.

يعنى: كل نفس رسخت معرفتها وصدقت محبتها إذا اشتاقت إلى حضرة محبوبها وجمال معبودها وجدت ألماً بشوقها المعتلج أى: الشديد المحرق لأحشائها، المترقب بقلوبها أنواعاً من الألم لا ينطفئ إلا ببرد لقاء المحبوب، وظهر بهذا وجه ارتباط هذا البيت بالذى قبله.

وثنايا الحسنا صاحبة وتما الضحك على الفلج

الثنايا: أربع فى مقدم الأسنان، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل، ويطلق على طرائق العقاب، واحدها ثنية. والحسنا بفتح الحاء المهمله والمد: صفة المؤنث وهو اسم أنثى من غير تذكير إذ لم يقولوا رجل أحسن، وقالوا فى ضده: رجل أمرد ولم يقولوا: جارية مرداء. والضحك. بكسر الضاد وسكون الحاء، وفتح الضاد وكسر الحاء وسكونها أيضاً مصادر ضحك. والتمام: الكمال، وتم القمر كمل.

١. سبق الترجمة له.

والفلج: تباعد منابت الأسنان، مصدر فلج الرجل بكسر اللام فلجاً، وهو حسن في الأسنان.

يعنى: أن مناهج المعرفة ومعالم الاستقامة الملتقمة من الملة المحمدية بيّنة لا لبس فيها يخاف منه الهلاك والذوق في المكروه والضلال، وإنما يخاف من العوارض التي تعرض للسالك من جهة النفس والشيطان وذلك أمر يرجع إلى تقصيره في المجاهدة. فإن النبي ﷺ لم يقبضه الله إليه حتى بين ذلك على الوجه الأكمل. قال تعالى: ﴿هُرَّ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَسْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١).

وكمال وضوح تلك المعالم إنما هو لوضوح أصلها، وإحكام وضعها، والوسائل والفروع واضحة بوضوح المقاصد والأصول، ألا ترى إن حسن الضحك وكماله إنما يتم بإحكام منبت الأسنان الذي هو الفلج.

وعياب السر قد اجتمعت بأمانتها تحت الشرح (٢) -

العياب: جمع عيبة بالمهمل، وهو وعاء يصنع من جلد الغرار ويطلق على من هو لك محل سر رجلاً كان أو امرأة، قال سيدنا رسول الله ﷺ: «الأنصار كرشى وعبيتي» (٣). ويجمع أيضاً على عيب بكسر العين وفتح الياء وعلى عيبات، والسر: ما يكتنم، وجمعه: أسرار. والأمانة: ضد الخيانة، وهى هنا ما يؤتمن عليه من أسرار الشريعة. والشرح بفتح الراء والجيم هي: العرى.

يعنى: أن أسرار الله في خلقه وعيب ملكه وملكوته مما حجب الخلق عنه إلا من شاء تشبه عيبة موقورة شدت لصون ما فيها شداً وثيقاً حتى انضمت ودخلت تحت عراها فلا يطلع على ما فيها إلا من أذن له في حل تلك العرى فذاك يصل ويطلع على ما لم يطلع عليه غيره، وذلك الوصول يكون للأصفياء بتدرج النفوس على الأعمال وتهديها بتصفية القلب حتى يرتسم في مراتها

١. سورة المائدة: ٤.

٢. في بعض الروايات: وعياب الأسرار اجتمعت بأمانتها تحت الشرح.

٣. رواه البخارى في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، رقم (٢٨٠١)، ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥١٠)، وفضائل الصحابة للنسائي: ١٨٥.

الحقائق الغيبية والعلوم اللدنية^(١). والسبب في كتم هذا عن العامة: أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية كما لا تبصر نور الشمس الخفافيش. ووقع في كلام الشيخ الإشارة إلى أن العالم الراسخ والعارف المكاشف، وإن اتسعت معارفهما، فما خفى عنهما أكثر؛ لأن كل واحد إنما يعلم ما فتح الله به عليه. قال تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

والرفق يدوم لصاحبه والخرق يصير إلى الهرج
الرفق: الاقتصاد والتوسط، وأيضاً لين الجانب، ولطافة الفعل. والخرق ضده وهو: تناول الأمر على خلاف وجهه مع عجل وزيادة. والدوام: الاتصال. والهرج بسكون الراء: الفتنة والاختلاط وكثرة الفساد، وبفتحها: تحير البصر. والشيخ رحمه الله حركه على المعنى الأول للضرورة، وهو على المعنيين معا كناية عن انقطاع العمل لأن كثرة الفساد والتحير لا يدوم معهما عمل. يعنى: من سلك في كل ما أسلفناه من المطالب العلمية والعملية، الرفق بلين الجانب مع الناس والاقتصار في تحصيلها ولم يجهد نفسه دام عمله، فاستفاد وأفاد، وهدى واهتدى، ومن عتف النفس وكلفها فوق طاقتها وعامل الناس بصلاية الجانب، لم يدم له عمل، وتحير بجعله، فضل وأضل. ولهذا قال ﷺ: "إن ديننا هذا متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"^(٣).
صلوات الله على المهدي الهادي الناس إلى النهج^(٤)

الصلاة: اسم وضع المصدر بقوله صلى صلاة لا تصلية، وهى من الله الرحمة، ومن غيره استدعاء للرحمة من الله تعالى، وجمعها باعتبار الأنواع. المهدي أى: الذى خلق فيه الهدى عقداً وقولاً وفعللاً لوجود عصمته مُطلقاً.

١. العلم اللدنى: يراد به العلم الحاصل لا من كسب، ولا تعمل للعبد فيه، وسُمى لدنياً لكونه إنما يحصل من لدن ربنا لا من كسبنا. انظر: لطائف الإعلام: ٢ / ١٥٦.

٢. سورة الإسراء: ٨٥.

٣. رواه البيهقي فى سننه الكبرى ٣ / ١٨، ١٩، وابن المبارك فى الزهد ٤١٥، وابن عبد البر فى التمهيد ١ / ١٩٥، وهو فى مجمع الزائد ١ / ٦٤.

٤. فى بعض الرويات: الهادي الخلق إلى النهج.

والهادي: المرشد لعباد الله بالدعاء إليه، المعرف لهم طريق نجاتهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

والناس: الجن والإنس وأصله: أناس عند سيبويه^(٢) والفراء^(٣) فحذف الهمزة، وعند الكسائي^(٤) فعل من ناس ينوس أى: تحرك فلا حذف. والنهج بالفتح والسكون: الطريق أطلق هنا على ما أتى به نبينا محمد ﷺ من الدين المستقيم، والصلاة عليه ﷺ فرض في الجملة لأمر الله بها مطلقاً وهو الوجوب عند أكثر أهل العلم. ونقل القاضي عياض^(٥) رحمه الله تعالى الإجماع عليه، وقال الطبري^(٦): للندب، وادعى الإجماع عليه. ثم الواجب قولها في العمر مرة واحدة كالشهادة

١. سورة الشورى: ٥٢.

٢. سيبويه: (ت١٨٠هـ): أبو الحسن عمرو بن عثمان بن قنبر، لقب بسيبويه أى رائحة التفاح. إمام البصريين. أصله من البيضاء من أرض فارس. أخذ عن الخليل، ويونس وغيرهما. قال الأزهري: كان سيبويه علامة، حسن التصنيف. انظر: بغية الوعاة ٢ / ٢٢٩. المعارف: ٥٤٤. الإعلام: ٨٢.

٣. سبق الترجمة له.

٤. الكسائي: (ت١٨٣هـ تقريباً) أبو الحسن، على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الإمام المعروف بالكسائي. إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين، وسُمى الكسائي لأنه أحرم في كساء، وقيل غير ذلك، له من التصانيف الكثير منها: "معاني القرآن"، "القراءات"، "النوادر"، و"المصادر"،.... انظر: بغية الوعاة: ٢ / ١٦٢. المعارف: ٥٤٥.

٥. القاضي عياض: (ت٥٤٤هـ بمراكش) أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن ليحصى السبتي، عالم للغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، ولّى قضاء سبتة ثم قضاء غرناطة، وله الكثير من التصانيف منها: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك"، "مشارق الأنوار"، وجمع العلامة المقرئ سيرته وأخباره في كتاب "آزهار الرياض في أخبار القاضي عياض". انظر: قضاة الأندلس: ١٠١. جنوة المقتبس: ٢٧٧، المعجم لابن الأبار: ٢٩٤. معجم الأعلام: ٥٦٩. الإعلام: ٢٢٢.

٦. الطبري: (٢٢٤ / ٢١٠هـ) أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير بن غالب، والطبري نسبة إلى طبرستان. برع في العلوم الدينية والأدبية والتاريخية إلى جانب الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب، له من التصانيف الكثير منها: "تجامع البيان عن تأويل أي القرآن"، و"تاريخ الطبري".... وغيرها. انظر: الوفيات: ٢٠٢. نزهة الألباء في طبقات الأدياء: ١٥٠. لمحمدون من لشعراء: رقم ١٥٩. معجم الأعلام: ٦٨٩. الإعلام: ١٢٢.

بالرسالة كذا قال الشارح. وهو جار على معتقده، وأما معتقدا فذهب إمامنا الشافعي^(١) وأصحابه إلى وجوب الصلاة عليه ﷺ في كل صلاة في التشهد الأخير، وما زاد على ذلك فمندوب من شعائر الإسلام.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقيت جبريل فقال لي: أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه^(٢). وقال ﷺ: من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقى اسمى في ذلك الكتاب^(٣). والأحاديث في ذلك كثيرة.

وأبى بكر في سيرته ولسان مقالته ألهج

قدم الصديق^(٤) على الثلاثة؛ لأنه أفضل الصحابة عند جمهور أهل السنة، ومن ادعى الاجماع عليه فقد أبعد لأن سلمان^(٥)، وأبا ذر^(٦)، والمقداد^(٧).

١. الشافعي: (١٥٠ / ٢٠٤هـ) أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطليبي. أحد الأئمة الأربعة. صاحب المذهب المعروف. كان بحراً في العلم وآية في الذكاء. أول من دون علم الأصول ورثب مسائله، وكتابه "الرسالة" معروف متداول، نشأ بمكة، ولازم مالكا بالمدينة، وتوفى بمصر. انظر: المعين: ١١٥. الأعلام ٦ / ٢٤٩. معجم الأعلام: ٦٧٧. الإعلام: ٩٢.

٢. لم أقف عليه في كتب الأحاديث المختلفة.

٣. رواه الحافظ ابن عساکر في تاريخ دمشق ٢ / ١١٤، والأصبهاني في الترغيب ١ / ١١٠، وأورد الغزالي في الإحياء، ومجمع الزوائد ١ / ١٣٦.

٤. الصديق هو لقب أبي بكر. وستأتي ترجمته في متن النص.

٥. سلمان: (٢٥٥هـ) أبو عبد الله، يعرف بسلمان الخير. مولى رسول الله ﷺ. سئل عن نسبه فقال: أنا سلمان بن الإسلام. أصله من فارس. أول مشاهده الخندق وهو الذي أشار بحفره، ولم يفته بعد ذلك مشاهد مع رسول الله ﷺ. توفى بالمدائن. انظر: المعارف: ٢٧٠. المعين: ٢٤. الإعلام: ٣٢.

٦. أبو ذر: تقدمت ترجمته.

٧. المقداد: (٢٣٢هـ) المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر. يقال له: الكندي لمحالفة أبيه كندة بحضرموت. هرب لمكة لثأر عليه في حضرموت، فتيناه الأسود بن عبد يغوث فسَمي المقداد بن الأسود. ولما أُبطل التبنى عُرِف بالمقداد بن عمرو، يكنى أبو الأسود، وأبو عمرو. أسلم قديماً. هاجر الهجرتين. شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ. انظر: المعارف: ٢٦٢. المعين: ٣٢. معجم الأعلام: ٨٥٧.

وجابر^(١) وأبا سعيد الخدري^(٢) وزيد بن أرقم^(٣) فضلوا علياً عليه، وكان سفيان^(٤) يرى رأى الكوفيين فى تقديم على، ثم رجع. ووقف جماعة من السلف عن على وعثمان^(٥) ولم يفضلوا واحداً منهما على الآخر منهم: الإمام مالك^(٦)، ويحيى بن سعيد القطان^(٧) رحمهما الله تعالى.

اسم أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عبد الله، وكان يقال له: عتيق لجماله وعتاقة وجهه أو لأن النبى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال فيه: "من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فليتنظر إلى هذا"^(٨).

١. جابر: (ت ٧٨هـ تقريباً) أبو عبد الله، أو أبو عبد الرحمن أو أبو محمد، جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصارى السلمى المدنى، شهد العتبة مع السبعين من الأنصار، وكان أصغرهم يومئذ، ولم يشهد بدرأ ولا أحداً وشهد ما بعد ذلك، وروى عنه كثيرون. انظر: المعارف: ٢٠٧. المعين: ٢١.
٢. أبو سعيد: تقدمت ترجمته.
٣. زيد بن أرقم: (ت ٦٦هـ) أبو عمرو، زيد بن أرقم بن زيد الأنصارى. صحابى جليل، غزا مع رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبع عشرة غزوة، ونزل بالكوفة، وكان من خواص الإمام على وشهد معه صفين. انظر: المعين: ٢٢. معجم الأعلام: ٢٨٥.
٤. لعله، سفيان: (٩٥ / ١٦١هـ) أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى. من بنى ثور بن عبد مناف من مضر الكوفى. أحد المجتهدين المجمع على ورعهم ودينهم وزهدهم وثقتهم، وُلِدَ بالكوفة، وتوفى بالبصرة. انظر: المعين: ٨٧. المعارف: ٤٩٧.
٥. عثمان بن عفان: ستأتى ترجمته فى المتن.
٦. الإمام مالك: (٩٣ / ١٧٩هـ) أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو ابن الحارث. كان أبوه أنس راوياً للحديث. روى عنه كثيرون منهم الإمام أبو حنيفة وغيره، وأجل آثاره كتابه "الموطأ" واعترف له بالسبق على كل كتب الحديث. وقيل: الموطأ هو الأصل واليباب، والبخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى. انظر: المعارف: ٤٩٨. المعين: ٩٠.
٧. يحيى بن سعيد: (ت ١٩٨هـ) أبو سعيد، يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، مولى بنى تميم، كان من سادات أهل البصرة وقراءتهم. كان ممن مهّد لأهل الحديث طرق الأخبار وحثهم على تتبع العلال للأثار. قال ابن حنبل: ما رأيت بعينى مثله. انظر: المعارف: ٥١٤. المعين: ١٠٥. معجم الأعلام: ٩٣٩. الأعلام: ١٨١ / ٩.
٨. ورد الحديث بشأن أعرابى، انظر: مشكاة المصابيح ١ / ١٩. وانظره فى صحيح البخارى: ٢ / ٢٦١. ومسلم ١ / ٤٤ كتاب الإيمان.

وسُمي الصديق لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ، وملتقى نسبه مع نسب النبي ﷺ في مرة.

واللسان: آلة الكلام يذكر يؤنث. والهج بكسر الهاء: المثابر على الشيء الوالع به، فكان ﷺ مداوماً على الصدق في سيرته وقيامه في نصرة النبي ﷺ. ومن عجب ما روى عنه أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله دعني لأدخل قبلك. يعنى إلى الغار. فإن كان فيه شيء نالني دونك قال: ادخل. فدخل أبو بكر ﷺ وجعل يلتمس الغار بيده، فكلما رأى جحراً شق من ثوبه وألقمه الجحر، حتى أتى على ثوبه أجمع، وبقي جحر فلم يجد ما يسده به، فوضع عليه عقبه، ثم دخل النبي ﷺ فلما أصبح قال له النبي ﷺ: أين ثوبك يا أبا بكر؟ فأخبره بالذي صنع. فرفع النبي ﷺ يديه وقال: "اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة". فأوحى الله إليه إن الله قد استجاب لك^(١).

وأبي حفص وكرامته في قصة سارية الخلاج

هو عمر بن الخطاب^(٢) بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب العدوى القرشى. وفي كعب يلتقى نسبه مع نسب النبي ﷺ.

ولد بعد الفيل بثلاثة عشر عاماً. أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام، وخلافته شرفاً لأهل الإسلام، وبويع بالخلافة يوم مات أبو بكر ﷺ سنة ثلاث عشرة، فسار فيهم أحسن سيرة. وأشار الشيخ إلى ما روى أنه ﷺ بينما هو يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته يا سارية الجبل^(٣). قال على ﷺ: فكتبت تاريخ تلك الكلمة فلما قدم

١. أورد هذه الرواية بلفظ آخر الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٢ / ٤٩٢.

٢. انظر ترجمته في: المعارف: ١٨٤، المعين: ١٨. الرياض النضرة: ٢ / ١٨٥.

٣. سارية: (ت: ٣٥) هو سارية بن زعيم بن عبد الله الكنائى صحابى من الشعراء القادة الفاتحين كان لصاً فاتكاً فى الجاهلية. كثير الغارات. يسبق الفرس عدواً على رجليه. أسلم لما ظهر الإسلام، وجعله عمر بن الخطاب أميراً على جيش وسيرة إلى بلاد فارس عام ٢٢ هـ، وهو المعنى بقوله: "ياسارية الجبل" أى: ألزم الجبل. انظر ترجمته فى الإصابة ترجمة رقم ٢٠٢٤ معجم الأعلام: ٢٩٠.

رسول ذلك الجيش قال يا أمير المؤمنين: غزونا يوم الجمعة وقت الخطبة فهزمونا، فإذا إنسان يصيح يا سارية الجبل!! فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت.

والكرامة: اسم من الإكرام والتكريم وهي: الخارق الذي يكرم الله به عبده الصالح لزيادة اليقين. والقصة: الحديث فعلة من قص أثره إذا تتبعه: لأن المخبر يتبع معنى الحديث ليلفها. والخلاج بفتح اللام: هو أن يشتكى الرجل عظامه من عمل أو طول مشى وتعب. وهو فى البيت بكسر اللام نعت لأنه كَفِرَح من فرح. وإن قُرئ فى البيت بالفتح فجائز ويكون نعتاً بالمصدر للمبالغة كقولهم فى جد النبي ﷺ: "شبهة الحمد"، وفى صاحب رسول الله ﷺ: "طلحة الخير" (١) لكثرة خيره ومعروفه.

ووصف الشيخ سارية بذلك لأنه كان عند سماعه النداء فى غاية التعب والنكد والاضطراب واليأس من الظفر بالعدو. والواو أول البيت عطفت ما بعدها على ما قبلها فهو داخل فى حكم الصلاة، والواو الثانية عطفت ما بعدها مع متدرّ دل عليه ما صرح به فى البيت السابق، ويكون تقديره: وعلى أبى حفص فى سيرته وكرامته.

وأبى عمردى النورين الـ مستحى المستحيا البهج (٢)

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى. يلتقى نسبه مع نسب النبي ﷺ فى عبد مناف. ولد بعد السنة السادسة من الفيل، وبويع له بالخلافة بعد موت عمر باتفاق الناس عليه. وجمع الناس على المصحف، وكثر المال فى خلافته، وبشّره النبي ﷺ بالجنة على

١. طلحة الخير: (ت٢٦هـ) أبو محمد، طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة: صحابى من العشرة المبشرين بالجنة. هاجر مع النبي ﷺ، خرج فى الدفاع عنه فى أحد، وهو أحد الستة المكنين بالشورى. أحد الثمانية الذى سبوا إلى الإسلام. سماه النبي ﷺ طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض، مات يوم الجمل. انظر: المعارف: ٢٢٨. معجم الأعلام: ٣٦٧. الإعلام: ٢٢٢.

٢. فى بعض الروايات: المستهدى المستحى البهج.

بلوى تصيبه فقال: الله المُستعان، فقتل مظلوماً صابراً محتسباً، وأهدر الله بدمه دم سبعين ألفاً وأزيد بالجمل وصفين^(١).

وقد وصفه الشيخ بأربعة أوصاف:

الأول: ذو النورين، قال المهلب بن أبي صفرة^(٢): لأنه لم يعلم أن أحداً أسدل ستراً على بنتى نبي غيره.

الثاني: المستحى اسم فاعل من الحياة، قال ابن عمر^(٣) رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: "عثمان أحيا أمتي وأكرمها"^(٤).

الثالث: المستحيا: اسم مفعول، يحتمل إنه أشار به إلى ما ورد في الصحيح أن النبي ﷺ كان جالساً فدخل أبو بكر فلم يغط فخذ، ودخل عمر فلم يغطه، ودخل عثمان فغطاه، وقال: ألا استحى ممن اسحيت منه ملائكة السماء^(٥)، ويحتمل أنه أشار إلى استشهاده لأن الشهادة ملزومة للحياة.

الرابع: البهج بالباء الموحدة المفتوحة وكسر الهاء: وهو إشارة إلى حسن خلقه.

قال ابن عبد البر^(٦): كان عثمان شيخاً جميلاً طويل اللحية حسن الوجه.

١. موقعة "الجمل" وقعت في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ، وكانت بين الإمام على كرم الله وجهه، وبين طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة من جهة ثانية. انظر تفاصيلها في الأخبار الطوال: ١٤٤ وما بعدها.

- موقعة "صفين"، كان مبدأ محاربات صفين أول صفر سنة ٣٧ هـ، وكانت بين الإمام على كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان. انظر تفاصيلها في الأخبار الطوال: ١٥٥ وما بعدها.

٢. المهلب بن أبي صفرة: (٧ / ٨٣ هـ) أبو سعيد. المهلب بن أبي صفرة بن ظالم بن سراق الأزدي العتكي. أمير. بطاش. جواد. انظر: معجم الأعلام: ٨٧١. الإعلام: ٤٨.

٣. ابن عمر: (١٠ هـ / ٧٢ هـ) أبو عبد الرحمن. عبد الله عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي. صحابي. من أعز بيوت العرب في الجاهلية. انظر: معجم الأعلام: ٤٤٩. الإعلام: ٤٦.

٤. ورد بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢ / ٤٩٩ برقم (٦٠٦٩)، وصحيح مسلم ٤ / ١٨٦٦.

٥. مشكاة المصابيح ٢ / ٤٩٩ برقم (٦٠٦٩).

٦. ابن عبد البر: (ت ٤٦٣ هـ) أبو عمر. يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي. من كبار حفاظ الحديث، أديب، مؤرخ، وُلد بقرطبة، وولى قضاء لشبونة وسنترش، له من المصنفات: "جامع بيان العلم وفضله"، و"الاستيعاب" وغيرها. انظر: وفيات الأعيان ٢ / ٢٤٨. الصلاة: ٦١٦. معجم الأعلام: ٩٦٧.

وروى بالنون من نهج الطريق نهوجاً أى: وضع، فيكون إشارة إلى إشهار فضله، ووضوحه مثل وضوح الطريق المسلوك.

وأبى حسن في العلم إذا وافى بسحائبه الخلق

هو على بن أبى طالب، واسم أبى طالب: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى، يكنى أبا حسن.

قال ابن اسحاق^(١): هو أول من أسلم من الرجال، والصحيح أن أبا بكر أول من أظهر إسلامه، وعلى أخفى إسلامه خوفاً من أبى طالب^(٢). وأجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين، وشهد المشاهد كلها، وقام فيها المقام العظيم، وأبلى ببدر، وأحد، والخندق، وخيبر بلاءً عظيماً. وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى قتل فيه عثمان من المهاجرين والأنصار، ولم يتخلف عن بيعته إلا القليل. والأحاديث فى فضله كثيرة، بل قال سنيان الثورى^(٣) وأحمد بن حنبل^(٤) وإسماعيل بن إسحاق^(٥): إنه لم يرد فى فضل أحد ما ورد فى فضله.

١. ابن اسحاق: لعله، محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى بالولاء، المدنى (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م). من أقدم مؤرخى العرب. انظر: معجم الأعلام: ٦٧٧. الإعلام: ٧٢.

٢. أبو طالب: (ت ٢ ق. هـ) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم. أمه: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. كفل رسول الله (ﷺ) بعد وفاة جدّه، ظل يحمى رسول الله (ﷺ) من الكفار حتى مات. وتوفى عن بضع وثمانين سنة. انظر: سيرة ابن هشام ١ / ١٠٥ / ١٣٧..... وغيرها.

٣. سنيان الثورى: سبق الترجمة له.

٤. أحمد بن حنبل: (١٦٤ / ٢٤١ هـ) أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى الروزى كان بارع الفهم لمعرفة الحديث صحيحه وسقيمه، صاحب مذهب فقهى معروف، له من الآثار المسند وهو من أكبر المراجع فى مجال السنة التى كتب لها البقاء واشتمل على نحو : ٤٠.٠٠٠ حديث بالمكرر. انظر: وفيات الأعيان ١ / ١٧. المعين: ١٢٢. معجم الأعلام: ٦٢.

٥. إسماعيل بن إسحاق: (٢٠٠ / ٢٨٢ هـ) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمى الأزدى. فقيه على مذهب الإمام مالك. جليل التصانيف، من بيت علم وفضل انظر: معجم الأعلام: ١٠١.

ومن كلامه الغر تسع كلمات:

ثلاث فى المناجاة وهى: كفانى فخراً أن تكون لى ربأ، وكفانى عزاً أن أكون لك عبداً، وأنت كما أحب، فاجعلنى كما تحب.

وثلاث فى الحكمة وهى: قيمة كل امرئ ما يُحسن، وما هلك امرئ عرف قدر نفسه، والمرء مخبوءٌ تحت لسانه.

وثلاث فى الأدب وهى: استغن عمن شئت فأنت نظيره، وتفضل على من شئت فأنت أميره، واضع لمن شئت فأنت أسيره^(١).

وقوله وافى هو من الموافاة وهى: الإتيان تقول فلان وافى إذا أتى. والسحاب: جمع سحابة وهى الغيم، وأصلها الجر لأنها تنجر فى الهواء، والسحب: الجر. والخلج بضمها: جمع خلوج وهى: السحاب المفترق وأيضاً السحابة المنفردة الكثيرة الماء كذا قال الشارح. وفى الصحاح: الخليج من البحر شردمة منه. والخليج: النهر. والخليج: الجبل. والخليج: الجفنة، والجمع: خلج. والخلج أيضاً: سفن صغار. انتهى.

فاستعير لأنواع علومه (رَبِّهِ) السحائب ورشحت هذه الاستعارة للمبالغة بالخلج.

ومعناه: إذا أتى بعلومه النقلية والعقلية الكثيرة النفع لأهل الإسلام كالسحائب النافعة بمائها، وتلك العلوم هى: علوم التوحيد، والتفسير، والفقه، والفرائض، والعلم بفضل العربية وغيرها.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: "أنا مدينة العلم، وعلى بابها"^(٢). وقال ﷺ: "ليهنك العلم أبا الحسن لقد شريت العلم شرباً ونهلته نهلاً"^(٣).

١. انظر هذه النصائح فى "سجع الحمام فى حكم الإمام مواطن متفرقة: ٢٦٨ / ٢٧٠.

٢. ورد الحديث بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢ / ٥٠٤. سنن الترمذى: ٥ / ٥٩٦ كتاب المناقب.

٣. رواه الحاكم فى المستدرک على الصحيحين ٣ / ٣٠٤، والحافظ ابن عساکر فى تاريخ دمشق ٢ / ٢٢٩، وأورد السيوطى فى الدر المنثور ٢ / ٢٤٧.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يرجعون إليه فى المشكلات حتى أنّ معاوية^(١) كان يرجع إليه فى بعض الوقائع كما أخرج ذلك مالك فى الموطأ. وقد اقتصر على ما شرطته من جل الأبيات فمن أراد الاطلاع على سير هؤلاء وفضلهم، وما وقع لهم من الأحوال السنية، ولبقية العشرة المشهورة فعليه بالكتاب المسمى "بتحفة البررة فى فضائل العشرة" فقد استوفيت فيه الكلام على تراجم هؤلاء رضى الله عنهم، وأسأل الله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه وينفعنا بما علمنا ولا يجعله حجة علينا^(٢) ويحقق رجاءنا فى كرمه والمسلمين أجمعين إنه ولى ذلك، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم^(٣).

-
١. معاوية (ت ٦٠ هـ) معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف رأس الدولة الأموية. تولى بعد الحسين عليه السلام. وهو أحد دهاة العرب وحلمائها. انظر: المعارف: ٣٤٤. الأعلام: ٨ / ١٧٢. معجم الأعلام: ٨٥٠.
 ٢. فى نسخة الأزهري: ولا يجعله حجة علىّ وأن يحقق مرتجى فى كرمه ويفعل ذلك بجميع المسلمين إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد كما باركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد، تم الكتاب بعون الملك الوهاب يوم الأربعاء المبارك عاشر شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٠٤٠هـ، والحمد لله وحده.
 ٣. مخطوطة بدار الكتب الوطنية تونس، مكتبة حسن حسنى عبد الوهاب رقم ١٨١١٧.